نساء يجمعن ندى الفجر

رواية

محاسن عرفة

الكتاب : نساء يجمعن ندى الفجر (رواية)

الكاتبة : محاسن عرفة

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

عرفة ، محاسن

نساء يجمعن ندى الفجر/ محاسن عرفة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٢ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ٨٧٥ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع ٢١٦١٢ / ٢٠١٨

نساء يجمعن ندى الفجر

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء

إلى روح أمي ..

وإلى مدينة بيروت مسقط رأسي ..

محاسن عرفه

منى ياسين

ماذا نفعل هناك؟

كنا نحكي قصتنا، لكن قصتنا لم تكتمل. تفرقنا جميعًا، مضكل منا في سبيله بحثًا عن نهاية تليق بأوهامه بأمنياته، ببحثه المحموم عن الغد.

الآن وأنا أجمع آخر الأشياء من هذه الاستراحة الأليفة التي جمعتنا لزمن، أدرك أن الجدران خزنت قصصنا كلها بين مساماتها، في زاويةالركن القصي لطالما انتظرت يارا أيمن، أين هي يارا الآن يا ترى؟ وأين هو أيمن، ربما مسافر في مكان ما؟ كلاهما غاب في عتمة السنين.

هنا على طاولتي المفضلة في منتصف المكان اعتادت مي الجلوس معي، نتحدث طويلًا وأنا أراقب بعيني كل طاولات الغرباء والأصدقاء.وفي الجانب الأيسر حيث البيانو العتيق، لطالما انتظرت ريم قدوم فؤاد عزت.

لا أعرف كم من السنوات مرت على هذه التفاصيل، كل ما على فعله الآن، جمع اللوحات عن الجدران، لملمة ما تبقى من أشياء لأتخلص منها قبل السفر.

لم يعد هناك مكان اسمه (استراحة الزمن الجميل)، كل شيء قابل للتغير، للتحول، البشر، الأشياء، الأماكن، هذا هو الأمر الثابت والوحيد في الحياة (التغيير).

تعلق عيناي عند اللوحة التي ضمنت بيتين من الشعر لأبي العتاهية، أقرأهما وأجهش بالبكاء:

ولعــل مــا تخشــاهُ لــيس بكــائنٍ ... ولعـل مـا ترجـوهُ سـوف يكـونُ
ولعــل مــا هونــتَ لــيس بهــينٍ ... ولعـل مـا شـددتَ سـوف يهـونُ

فؤاد عزت

ذات ليل كنت أستعجل الوصول للبيت، وأنا في غاية السعادة بعد الحفل الذي أقيم لتكريمي، ومنحي جائزة أفضل موسيقى تصويرية، في الفيلم الذي وصل إلى أهم المهرجانات الأوروبية، فكرت كثيرًا في الكلمات التي سأقولها لزوجتي، وكيف سأضخ في أعماقها عبارات الثناء التي سمعتها، ولكن هل تراني أستطيع؟

الأضواء في البيت تبدو من الخارج خافتة، ربما هي تتفرج على التلفاز، أو تصلي صلاة العشاء، ولكن هذا موعد نومها، لعلها غفت وتركت الأضواء مشتعلة، فهي عندما تكون وحيدة في البيت تحب أن تترك الأضواء مضاءة، وأنا لا أحب أن تبقى وحيدة سواء من أجل انتظاري أو لأي سبب آخر، لكنها تصمم أن تنام لوحدها، الفتاتان تقنعانها بالمبيت عند إحداهما لحين حضوري، وكذلك الشابان وزوجتاهما، ولكنها تنظر إليهم تهز رأسها وتبتسم وتقول:"أنا لا أخاف أن أبقى لوحدي، البيت مليء بأنفاسكم، وجيراني حولي، والهدوء جميل محبب إلى النفس، وغدًا أو بعد غد يحضر والدكم، دعوني هكذا مرتاحة، لا تقلقوا من أجلي، أنا لا أشكو همًّا، وإن شكوت فأنتم معي إلى جانبي".

في أول عهدي بالسفر والمهرجانات الموسيقية، كان الأولاد يصرون أن تبقى معهم، أو أن يأتي أحدهم ليبقى معها، أو أن يرسلوا أحد أولادهم لتسليتها، ولكنها مع مرور الوقت أخذت تعاند، وتفضل أن تقضي وقتها دون اللجوء لأحد لمساندتها.

* * *

قبل سنوات كثيرة في عيد ميلادي الثالث والثلاثين، حين افتتح أحد أقربائي نادٍ ليلي، طلب مني أن أعمل لديه محاسبًا لمدة ثلاث ساعات خلال الليل، إلى جانب عملي في إحدى الشركات نهارًا، كان برنامج السهرة يتألف من العشاء ومطرب أو مطربة يؤديان أغاني طربية، ويعزفان موسيقى كلاسيكية، سررت كثيرًا بهذا البرنامج، وخاصة أنني كنت أحب الموسيقى كثيرًا، وكم تمنيت لو أن أهلي اشتروا لي ذات يوم أي آلة موسيقية لأتعلم عليها العزف.

في اليوم الأول وأثناء تأديتي لعملي، كنت أراقب الشاب، الذي كان يعزف على البيانو، وما إن انتهى وصفق له الحاضرون، حتى اقتربت منه وهنأته، ثم أخذت أسأله بعض الأسئلة، نظر إليّ ثم قال:"يبدو أنك تحب الموسيقى".

– نعم كثيرًا

– ولماذا لم تلتحق بمعهد لتدرس الموسيقى؟

نكست رأسي خجلًا وقهرًا، وقلت له:"ظروف الحياة".

هو الآخر أكمل طريقه نحو باب الخروج ثم قال: "هل تفكر الآن بدراسة الموسيقى؟".

نظرت إليه وهو يعبر للخارج، والسؤال يضج في رأسي، أنا أتعلم موسيقى! عمري خمس وثلاثون سنة، عندي بيت وعائلة، مستحيل.

ولكن رغم ذلك كنت آتي إلى عملي الجديد، وكل همي أن أراقب وأستمع بشغف إلى هذه الموسيقى، وأن أركض وراءه لحظة خروجه لأتحدث إليه وأسمعه، كان اسمه (تامر وجدي) في مثل عمري، وأخذ يهتم بي ويجيب عن أسئلتي بدون تذمر.

وذات يوم قال لي وأنا أودعه أمام باب الصالة:"لماذا لا تتعلم الموسيقى الآن؟"

–أتعلم! أحقًا أستطيع؟

–طبعًا تستطيع.

–وكيف؟

نظر إليّ وقال:"غدًا نتحدث بهذا الموضوع".

في تلك الليلة، ظلت عيناي تلمعان لمعانًا غريبًا، ويداي تتعرقان، ونسبة (الأدرينالين) في جسدي تعلو، وتهتز ساقي بين لحظة وأخرى، وبقيت هكذا حتى سمعت أذان الفجر، فقمت أتوضأ لأصلي، في الوقت نفسه، استيقظت زوجتي لتستعد للصلاة هي أيضًا.

قالت زوجتي بعد أن أكملنا صلاتنا:

– هل ثمة ما يشغل بالك؟ أراك متوترًا؟

– كلا، لا شيء.

نظرت إليّ، ثم قالت:

– ستخبرني عاجلًا أم آجلًا.

– لا شيء، لو كان يوجد شيء لأخبرتك، لن أخفي عنك.

وبعد أن أوت زوجتي للنوم، أخذت أقرأ بعض الآيات القرآنية ثم وضعت القرآن جانبًا، وأخذت أفكر أحقًا إنه من الممكن لي تعلم الموسيقى؟ وماذا بعد؟ هل سأعزف على بيانو مثل هذا الشاب الذي تعرفت إليه، هل أعمل مثله في ملهى ليلي؟ وأهلي ماذا يقولون؟ وزوجتي وأبنائي؟ ولكن مم تشكو الموسيقى؟ الموسيقى غذاء الروح والفكر، هكذا يقال. وهناك آلاف الموسيقيين الذين يعملون في الإذاعة والتليفزيون لا أحد يراهم أو يعرف عنهم شيئًا.

ولكن إذا أستطعت أن أتعلم الموسيقى، وأن أعمل بمجالها، فهل يمكنني التوفيق بين عملي وواجباتي الأسرية؟.

لم يكن هناك سبيل كي يزور النوم جفني، ولو لساعة واحدة، وقبل أن يحين موعد دوام عملي الليلي، لبست أجمل ثيابي وتعطرت، حتى حذائي لمعته، ووضعت عطرًا غاليًا، لا أضعه إلا في مناسبات معينة، ولما وصلت إلى العمل، أخذت أمارس مهامي، ولكن بذهن مشتت، وكأني أنتظر شيئًا لست متأكدًا من وصوله.

وما إن أطل تامر بحضوره اللطيف المميز، حتى هرعت إليه أبادله التحية، لكنه رمقني بنظرة وقال لي:"أراك متأنقًا للغاية الليلة، ترى ما السبب؟".

بصوت منخفض أجبته:"لا، لا يوجد أي سبب، فقط نوع من التغيير".

ابتسم وقال: "على كل حال الخبر الذي أحمله لك يستحق هذه الأناقة".

"أحقًا؟"سألته.

– نعم، سأخبرك كل شيء، ولكن بعد أن أنهي عملي.

ربت على كتفي وهمس: "كله خير، كن على ثقة".

شعرت بخفقات قلبي تزداد سرعة، وأنفاسي يكاد يُسمع لها صوتًا، وأخذت أراقب تامر وهو يعزف، وأتأمل يديه تارة، وشفتيه أركز عليهما وأتمنى لو ينطق الآن، ثم أعود فأركز على أنامله كيف تتحرك على البيانو بخفة ورشاقة.

رغم استمتاعي بالعزف الجميل، كنت أرغب بأن أعرف ما سيقوله لي، وأفكر بالتغيير الذي سيحصل في حياتي، في حال انتقالي من عملي هنا إلى دراسة الموسيقى والعمل بها.

وسط تصفيق حاد مثل ليلة، خرج تامر وتوجه إلى غرفة الاستراحة، لحقت به، وما إن رآني حتى أغلق الباب خلفنا.

وقبل أن أنطق بحرف سألني:"أتريد أن تتعلم الموسيقى حقًا؟".

نعم.

إلى أين وصلت بدراستك الأكاديمية؟

– لقد درست سنتين في الجامعة،لكني توقفت بسبب ظروف الحرب، ثم دخلت معهدًا للمحاسبة لمدة سنتين.

– هناك صديق لي يعطي دروسًا على بعض الآلات، الآلة التي ستتعلم عليها والوقت الذي ستحتاجه ستتفقان بشأنه، ولكن إن أظهرت تفوقًا، سوف تفتح أمامك كل الأبواب المغلقة.

وكيف ذلك؟

هو سيعطيك فكرة عن أكثر من آلة، ومن خلال تجاوبك معهسيحدد على أيةآلةسيعلمك.

– ومتى باستطاعتنا أن نبتدئ؟

– بعد ثلاثة أيام يكون مستعدًا لاستقبالك.

– أحقًا؟

نعم.

– وبالنسبة للمال؟

– صديقي هذا يعشق الموسيقى، وهو على استعداد أن يعلّم من يجد عنده الكفاءة والشغف، لقد علّم منذ فترة رجلًا في الخمسين على آلة العود، بالنسبة للمال هو ليس ماديًا على الإطلاق، وعمله يدر عليه مبالغ جيدة تجعله بعيدًا عن الحاجة للمال، فإذا وجد الرجل بك موهبة وكفاءة، فإن أبواب السعد ستفتح لك على يديه.

– اليوم الخميس، كيف سأنتظر حتى يوم الأحد؟

من عادة تامر ومن أجمل عاداته بالنسبة لي، أنه لا يتفاجأ بشيء، قلت له:هل باستطاعتي أن أزوره قبل يوم الأحد؟

رد فورًا:"سأتصل به وأسأله، فإن وافق فليس من مشكلة".

تركني تامر واتجه للتليفون الأرضي وأخذ يتكلم، ثم وضع السماعة وقال لي:

– غدًا في السادسة يكون في انتظارك، هل هذا الموعد يناسبك؟

– طبعًا يناسبني تمامًا.

تناول تامر ورقة صغيرة من دفتر أمامه، وكتب عنوان صديقه ورقم هاتفه.

لست أعرف كيف قضيت الساعات التي كانت تفصلني عن ذلك الموعد، وكم كنت تواقًا لرؤية ذلك الرجل، لم أكن أرى أمامي أحدًا، كنت فقطأفكر بالموسيقى، كانت الألحان تضج في رأسي، والنوتات والسلم الموسيقي، وكنت أستعرض أمامي عباقرة الموسيقى، بيتهوفن، موزارت، زرياب، سيد درويش، وغيرهم كثيرون، كنت أفكر بحياتهم، عقبريتهم، شموخهم، آلامهم، عذاباتهم.

ترى ماذا سيكون نصيبي من الموسيقى؟

إن حياتي في بيتي هانئة سعيدة، لا ينغصها سوى هذا الهوس، الذي يفرض نفسه علي، ويقف حائلًا بيني وبين صفاء نفسي، كانت زوجتي تراقبني، وهي تدرك أن في نفسي أمرًا، يختمر ولا يعلن عن نفسه، ولكنها لم

تكن من النوع اللجوج، وهي تعرف أنني لن أبوح إلا بالذي أريد أن أصرح به.

وكنت أعرف أنها لم تنظر لموضوع الموسيقى يومًا نظرة جدية، إنما تعتبره نوعًا من العبث الذي لا جدوى منه، وأنني يجب أن أنساه ولا أفكر به أبدًا.

ولكن يجب أن أخبرها الآن.

– نجاة .. أريد أن أخبركِ شيئًا.

– ماذا قل؟

– أريد أن أدرس الموسيقى عند أستاذ.

اصفر وجهها، وكأنني أخبرتها بحدوث مصيبة، قالت: "ألم ننتهِ من هذا الموضوع؟"

ولن أنتهِ..

دخلت زوجتي إلى المطبخ، فلحقت بها، تظاهرت بأنها تعمل، وبأنها مشغولة فقلت لها:

– يا نجاة، أنتِ تعرفين بأن هذا حلم عمري، فلماذا لا تشجعينني عليه؟

– إن شجعتك فأنا سأخسرك، وأنت ستخسر أولادك وبيتك.

– ولكن هل كل موسيقي يخسر أولاده؟!

– كلا، ولكن أنت تحيا حياة معينة، بيتك، أولادك، الصوم والصلاة، ستذهب لحياة مختلفة كليًا، ستضطر لتغيير جلدك.

– حتى الآن لم يحصل شيء، سأذهب غدًا لرؤية الأستاذ، قد لا نتفق.

– وقد تتفقان.

– لست أدري.

– لو أنك درست الموسيقى بدل أن تدخل الجامعة، ومن ثم المحاسبة، لكنت الآن قد أصبحت موسيقيًا بارعًا، أما أن تدرس الآن وأنت مسؤول عن بيت وأسرة..

تقاطع

في اللحظة التي هبط فيها فؤاد عزت إلى مطار بيروت، كان هناك امرأة تنتظر في كافتيريا المطار صديقتها القادمة من عمان، وقد راقبت عند وصولها اللائحة المدون عليها موعد الهبوط، فعرفت أن الطائرة ستتأخر ساعة عن موعدها، ففضلت أن تنتظر على أن تغادر وتعود ثانية، قصدت الكافتيريا، طلبت فنجان قهوة، وأخرجت من حقيبتها كتابًا، وأخذت تقرأ، وترتشف قهوتها، وتدخن سيجارة على مهل.

فؤاد عزت العائد من سفر قصير كان قد اتفق مع السائق المكلف باصطحابه أن يتقابلا في الكافتيريا أيضًا، استقرفؤاد في كرسي مقابل كرسي تلك المرأة الغارقة في كتابها، حدق فيها بنظرة فنان لفت انتباهه شيء ما، أحس بتلك الجاذبية التي لا تحدث كثيرًا على مدار الحياة، هو الذي اعتاد السفر كثيرًا، ورؤية وجوه الغرباء في كل مكان، للحد الذي قلما يسترعي انتباهه أشخاص عابرون، لكن ما الذي جعله يتوقف أمام ملامحها؟!

أهو جمالها؟ العالم مليء بالجميلات، السمراوات والشقراوات، ولكن ثمة شيء مختلف فيها يعطيها خصوصية، في وجهها ملاحة وعذوبة، وفي جسمها ليونة، ولكن ما لون عينيها؟ ها هي ترفع عينيها عن الكتاب، وتنظر حولها، ثم تنظر في ساعتها، ولكنها لا تنظر إليه أو نحوه، وكأن

وجوده كله لا يعنيها، ولكنه استطاع أن يميز لون عينيها، شهلاوتين بأهداب كثيفة، أثارهالتناغم بين تقاطيعها. تناول من حقيبته ورقة وقلمًا وأخذ يرسم ما يود الوصول إليه، لفت نظره أنها لا تضع أي نوع من المساحيق على وجهها، شفتيها سمراواتان من أثر التدخين، تتخللهما حمرة خفيفة، ربما لو وضعت أحمر شفاه بلون الخوخ على ثغرها لبدت أجمل بكثير، مرت بأناملها على وجهها وشعرها وهي تقرأ، يداها صغيرتان ناعمتان، خطر على بالهرسم يديها فقط، لوحة كاملة فقط يُظهر فيها يديها، ترى كم عمرها؟ ومن تنتظر؟.

فيما كان يضع رتوشًا على فكرة عبرت خاطره، كان الرجل المكلف بمرافقته قد وصل. غادركافيتريا المطار ونظراته تتابع تلك المرأة، التي كانتتركز نظراتها في كتابها، تمنى لو كان لديه الجرأة ليتحدث إليها، ربما يسعده الحظ فيلتقي بهامرة ثانية، بيروت ليست مدينة صغيرة فحسب، إنها مدينة ساحرة تصنع الأعاجيب بين البشر.

ريم حمــدان

طبيعة عملي جعلتني أغير جلدي، ابتدأت العمل الصحفي بالصدفة، لولا موت نبيل قبل سنتين، لكنت مجرد ربة منزل تطالع الصحف والمجلات وتساعد زوجها في البحث عبر الإنترنت على بعض المعلومات التي يحتاجها في عمله الصحفي.درست هندسة الديكور، ولكن نبيلرحمه الله رفض رفضًا قاطعًا خروجي من المنزل للعمل.أما العمل الصحفي ودخولي إليه فقد كان أمرًا مثيرًا للدهشة بالنسبة لي، صحيح أنني كنت أساعد نبيل ببعض الأعمال، ولكن عندما وافته المنية، عرض عليّ رئيس التحرير أحد أمرين، إما أن يعطيني مبلغًا من المال، وإما أن أعمل في الصحيفة، فوجئت بالعرضين، لكن ليلى ونزار لم يتركاني لحظة أتخبط، أشارا إليّ أن أقبل العمل مكان نبيل، وأنهما سيتعهدان بأن يعلماني أصول العمل الصحفي وتفاصيله.

وهكذا بدأت العمل الصحفي الذي أحببته لأن نبيل كان يحبه، وكانت روح نبيل معي نجمة تضيء لي دروبي.لم تكن الطريق مليئة بعطر الورد، فلقد واجهت كثيرًا من الصعوبات، وأنا بطبعي انطوائية قليلًا ما أتكلم، كما أنني لا أجيد المجاملات والضحكات الفارغة البلهاء، بل أحب أن أعمل بصمت وتأنٍ وهدوء ، كنت أتوتر عندما أكلف بمقابلة شخصية معينة، وخاصة إذا كانت تملك صفات مثل الكبرياء والعنجهية، ولكن نزار وليلى بقيا إلى جانبي، يغطيان النقص في عملي ويوجهاني ويلفتا نظري،

حتى تمكنت من إدارة أي حوار وإجراء أيمقابلة، وأصبحت أعرف متى أصمت ومتى أتكلم، والحمد لله اجتزت هذه العقبة، بل إنهم فيما بعد صاروا يقولون لي اكتبي في أكثر من جريدة، تحركي، ادخلي إلى التليفزيون، وجهك جميل، وحضورك وصوتك، ادخلي إلى الصحافة الإلكترونية، ولكن أنا مكتفية بمكاني هنا في الجريدة، إنها بيتي الكبير، كل مقال أكتبه، وأنجح بإيصال أفكاري، تغمرني السعادة، حتى إنه أصبح لي عمود أسبوعي.نعم كنت سعيدة بعملي، بفراغ قلبي الذي ملأته بالعمل والأصدقاء.

يقال عني إنني لست طموحة، ربما..لكن ما هو الطموح ؟ أن أكسب مالًا؟ أن أكون مشهورة ؟ لقد عرفت المشاهير عن قرب، فلم أعد أحلم بالشهرة، أما المال فقليله يفرح أكثر من كثرته. هذه الجملة لطالما رددها أبي على مسامعنا في طفولتي، حينها كان لكل شيء قيمة حتى الوقت، لكن هل صحيح أن كل شيء يتغير مع مرور الوقت أيضًا، ولسبب ما نجهله؟! هل أنا أيضًا سأتغير؟ربما..ومن يدري!

مي بدران

لم أعد أذكر شيئًا سوى أنني وجدت نفسي في المستشفى، وحولي عدد من الرفاق والرفيقات، وجهاز معلق في يدي وآخر على وجهي.

حاولت أن أنهض فلم أستطع، نظرت حولي فطالعني وجها ندى ولمياء، ابتسمتا لي، وهزتا رأسيهما وأشارتا بيديهما أن لا أتحرك، تلفت أكثر فوجدت وسام تبدو عليه أمارات الحزن والندم، فزاد منظره قنوطي، وتذكرت لقائي به قبل ساعات، والعتاب البارد، وكيف أنه حين عزمت على الانصراف، لم يلحق بي ولم يلح في بقائي، كأنه كان يقول لي إنه يريدني وهو ليس بحاجة لي، وعليّ أنا أن أختار، أو أن يقول لي إنه يريدني عجينة بين يديه يشكلها على هواه، أو قطعة معجون يصنع بها اللعبة التي تروق له، أما أن أعترض أو أسأل أو أناقش فهذه لا يريدها ولا يسمح بها، ولكن كأني أدور في حلقة مفرغة، فلماذا جاء الآن؟ أولست بسببه أنا الآن في المستشفى؟ هل من أجل أن يعتذر؟ أم يصحح خطأه أم ماذا ؟

عدت للنوم، وعندما استيقظت هذه المرة كان وسام هو الوحيد في الغرفة، أحسست بأنني قادرة على الكلام، فنزعت هذا الجهاز عن فمي وسألته عن ندى ولمياء.

– لقد طلبت منهم الانصراف؛ لأني أريد أن أتولى خدمتك ورعايتك بنفسي حتى تشفين.

ضغطت على الجرس الذي بجانبي، فجاءت الممرضة فبادرتها:

– من فضلك أريد أن أرى الطبيب المشرف على حالتي، وأريد أيضًا أن تطلبي لي هذين الرقمين.

– نصف ساعة ويكون هنا، وسأحول لك المكالمة.

انصرفت الممرضة، فاقترب وسام مني وقال: أنا هنا لتلبية طلباتك.

– أنت بالذات لا أريد أن أراك؛ لأني سأصاب بانتكاسة كلما رأيتك، لذا أرجو منك المغادرة، ولا داعي لأن أصرخداخل المستشفى.

– كلا لن أغادر، سأبقى حتى تتعافين وتعودين إلى البيت.

نظرت إليه شزرًا وقلت: وماذا بعد؟

قال: أنا مصمم، ماذا ستفعلين؟

– أنت مصمم أن تزيدني قهرًا، ألا يكفي ما حصل بسببك؟

كنت أتكلم وأشعر بثقل في جسمي من تأثير الأدوية عليّ، في هذه الأثناء حضر الطبيب، كان شابًا في حوالي العقد الرابع من عمره، ابتسم وحياني بلطف وتهذيب، وقال يجب أن تكون معنوياتك عالية وتنفذي التعليمات حتى تتعافين بسرعة.

– ليس قبل أن أعرف حقيقة وضعي وما حصل معي.

– كسر في الساقين مع الأسف، لن تستطيعي الخروج من المستشفى قبلأشهر.

– ماذا؟ كم شهرًا تقصد ؟

– ربما ستة أشهر.

– أنا أبقى هكذا ستة أشهر؟ أمي، جامعتي، كيف، لا أصدق!

– صحتك هي الأهم، ولكل مشكلة حل، المهم أن تنفذي التعليمات وتستجيبي للعلاج، وبعد فترة تستعملين العكازات وتتجولين مدة من الوقت داخل أروقة المستشفى، هل من أسئلة؟

– أريد أن أرى أمي وأطمئن عليها.

رتبي هذه المسألة مع صديقاتك، أنا لا أعرف التفاصيل.

انصرف الطبيب، نظرت بحقد إلى وسام، كيف تحول حبي له إلى حقد واحتقار؟لماذا قدت السيارة بعد لقائي به ؟لماذا اعتقدت أن قصتي معه هي نهاية العالم؟

ولكن لي عذري، فلم أكن قد خضت بعدُ تجربة في الحب، ثم إن أخي لم يكن إلى جانبي، أو أمي أو أختي علياء، لو كان أحدهم إلى جانبي، ربما كنت تكلمت صرخت، ولكن..

* * *

كل شيء بدأ منذ رحيل أخي محسن، وكأن فوهة الآلام انفتحت في وجهنا جميعًا.

تغيرت حياتنا جميعًا منذ موت أخي محسن، إنها ذكرى أليمة، أحسها طعنة في قلبي وفي عمري، يوم جاءنا نبأ سقوط الطائرة المغادرة من أفريقيا.بالنسبة لي، لم يكن أخي محسن مجرد أخ، كان رفيقًا وصديقًا وأبًا.

عاش كريمًا وعزيزًا، ومات في أوج سنوات الرجولة، لم يكن قدأتم عامه الأربعين، كان – رحمه الله – أبيض البشرة، عيناه خضراوتان، شعره كستنائي، طويل القامة يميل للامتلاء، ذلك الامتلاء الذي لم يكن سمنة، إنما كان جزءًا من تكوينه.

محسن علامة مضيئة في حياتي، علمني وثقفني، رغم أني كنت أحب أبي، فلقد كنت الصغرى بين أختي علياء وأخي محسن، كنت أعتبر أخي محسن الكل بالكل، وكان أبي يبارك علاقتنا هذه، ويفكر بأنه إذا حانت منيته، فإن أخي لن يتخلى عني.

تزوجت أختي علياء من أحدأقرباءنا وسكنت معه هنا في الضيعة، لكنها لم توفق في زواجها معه، وفضلت أن تبقى مع أولادها وأن لا تطلب الطلاق، ظل والدي ومحسن يزورانها باستمرار ويلبيان كل طلباتهاهي وولداها.

كان محسن قد تخرج مهندسًا مدنيًا، إلا أنه فضل السفر إلى أفريقيا ليعمل في التجارة مع عمي، الذي رحب به وسلمه كل شؤونه المهمة، وشجعه على الزواج من ابنته الوحيدة التي أنجبها من زوجته الفرنسية قبل سفره إلى أفريقيا.

انضم محسن في صباه إلى حزب سياسي وظل متعصبًا له، كنت أتأمله وهو يتحدث مع زملائه، حين كانوا يقيمون اجتماعاتهم في بيتنا، وأتعجب من مقدار حماسه.وفي السابعة عشر من عمري طلبت منه أن يدخلني معه إلى الحزب، فضحك وقال: أوكل إليك مهمة، فإن نجحت بها أدخلك.

هتفت وأنا سعيدة: أنا موافقة.

قال: سأعطيك أسماء عدة أشخاص أصحاب شركات ومؤسسات، وعليك أن تذهبي وتطلبي منهم تبرعات للحزب، فإن عدتِ ومعكِ مبلغ محترم، اطلبي وأنا رهن إشارتك.

- ومتى يجب أن أذهب؟

- ربما غدًا، سنرى وأبلغكِ.

- هل سأذهب وحدي؟

- كلا، سأرسل معكِ شاب وفتاة، ولكن أنت التي ستنفذين المهمة.

قال ذلك ونظر إليّ نظرة ثاقبة وأكمل: أنتِ جميلة يا مي لكن يجب أن يكون هندامك لائقًا، فالمظهر الحسن يفتح الأبواب المغلقة.

- لا عليك، هذا أمر بديهي لا خلاف حوله.

- لنرَ.

يومها لم أنم، كنت أنتظر الغد، وأفكر بأول مهمة حزبية ستوكل لي، وهل سأنجح بها ؟والفتاة والشاب اللذان سيرافقاني، ترى لأي نوع من البشر ينتميان ؟الشبان الذين يزورون أخي رأيت اثنين منهم مع زوجتيهما، لم أرَ أي فتيات أخريات.

في الصباح على مائدة الإفطار حياني محسن تحية الصباح وسألني: هل أنت جاهزة؟

- طبعًا.. قلت له.

سأل والدي:

- جاهزة لماذا؟

ابتسم محسن بتلقائية وهو ينظر نحوي قائلًا: هذا شيء بيني وبين مي.

ابتسم والدي وقال: إذن لن أسأل.

انتهينا من تناول الإفطار وتوجهنا إلى غرفة المكتب، حيث يعقد أخي محسن اجتماعاته، بادرني قائلًا: الآن سيحضر شاب وفتاة، الشاب اسمه جهاد، والفتاة اسمها ندى، وتذهبين برفقتهما ومعكم أسماء وعناوين الشخصيات الذين ستطلبون منهم التبرعات.معكِ نصف ساعة لتجهزي نفسك، خلال الطريق ستشرح لك الفتاة تفاصيل المهمة، والباقي عليكِ.

انتهت بنجاح تلك المهمة، وكما وعدني أخي أدخلني معه إلى الحزب، وأخذت أحضر الاجتماعات وأقرأ الكتب السياسية وأستمع وأناقش، وكنت سعيدة غاية السعادة وأنا أرى أخي محسن ورفاقة كل منهم يتبارى لتعليمي ولفت نظري وتثقيفي، ولكن لست أدري أي خلاف دب بين محسن والقيادة الحزبية جعله يصمم على السفر، وترك عمله السياسي وراءه.

سألته فرفض بشكل قاطع الحديث بالأمر، وأكد لي بأن هذا لن يؤثر على وضعي الجديد، وأنني لا علاقة لي بالموضوع، وأنه عمل لسنوات وأعطى، وقد آن الأوان أن يفكر بنفسه ومستقبله الذي لغاه وقتًا طويلًا، حاولت أن أجعله يتراجع ولكنه لم يستمع لي ولم يناقشني، إنما أكد لي أنه يحترم رأيي ولكن..

بعد سفره شعرت بثقل غيابه وبالفراغ الذي تركه في البيت، وفي وضعي الجديد، حقًا إن رفاقه حاولوا أن يغطوا غيابه، ولكنهم أثبتوا لي فعليًا مدى وحدتي.

ومع رسائله التي كانت تصل، والمبالغ المالية التي كان يرسلها للبيت وللحزب كتبرعات، ومع اتصالاته الهاتفية القليلة كان يزداد حنيني إليه، وقد عرفت من خلال اتصالاته أنه تزوج من ابنة عمي، وأنه أصبح أبًا لصبي وفتاة.

كنت قد دخلت إلى الجامعة لدراسة الطب البشري الذي كنت أحبه، وأكملت به دراسة سنتين بنجاح.

في ذلك العام المشؤوم قرر أخي محسن العودة للوطن، مع زوجته وأولاده، فأرسلهم قبله بشهرين، حتى يتيح لزوجته أن تختار المنزل الذي ستسكنه وتفرشه وترتبه حسب ذوقها، اشترت زوجته منزلًا قريبًا من بيتنا، وجهزت نفسها لاستقبال زوجها.

كانت صدمتنا بأخي محسن أكثر من احتمالنا، أبي وافته المنية فور سماعه النبأ من جراء سكتة قلبية، أمي – أطال الله بعمرها– أصيبت بفالج، وأنا وقعت أسيرة صدمة نفسية، أغيب فيها عن الوعي وأعود، وكانت أختي علياء وأولادها وعدد من الأقارب والجيران يهتمون بنا.

كنت أستيقظ في بعض الأحيان فأجد خالتي حُسنَى، تربت على رأسي وتبتسم لي وتقول: انهضي يا ابنتي؛ فالقدر ليس له من مهرب، أنت شابة وعندما تراكِ أمك متماثلة للشفاء فلا شك أنها تتحسن، ويجب أن تفكري بدراستك، أختك علياء عندها بيت وأولاد بحاجة لها، وعليها أن تهتم بهم، كانت خالتي حُسنَى أصغر من أمي، بيضاء البشرة ذات شعر خروبي، وإن كان الشيب بدأ يغزوه، قصيرة القامة، تميل للنحافة، ولسانها يقطر عسلًا وعذوبة، ودائمًا أنيقة ومرتبة، كنت أنظر إليها وأتأملها، وأشعر كأنها ملاك أرسله الله لي ليقف إلى جانبي، ويمدني بطاقة وحيوية وحبور.

ولما سألت عن زوجة أخي، أخبرتني بأن عددًا من أفراد أسرتها قد حضروا وعادوا بها إلى أفريقيا، وأكدت لي بأن رفاقنا الحزبيين هم الذين قاموا بكل واجبات ومراسم دفن أخي وأبي رحمهما الله، وأيضًا اهتموا بطبابة أمي وعلاجها، ولم يتغيبوا يومًا عن الحضور لتفقد حالتي، فقط في حضورها هي يذهبون لقضاء بعض أعمالهم ويأتون إلى بيتنا كدوام ثابت.

أخذت أتماثل للشفاء، وأستمع لنصائح خالتيبأن محسن لو كان حيًا لرفض أن أبقى رهينة المرض والبقاء بالسرير، وكنت أراقب أمي فأرى شبه ابتسامة على وجهها، فتمنحني الأمل والرجاء، ولا يغيب عن بالي محسن بجماله وحضوره وتشجيعه لي، ودعاباته معي، آهٍ يا محسن لو تعرف ماذا فعل غيابك بنا؟

* * *

بعد أيام حضر المحامي الذي كان مشرفًا على أملاك والدي وحضرت أختي علياء، وخالتي حسنى، فتلا علينا المحامي وصية والدي، ومفادها أن البيت والمحل سجلهما والدي باسمي؛ لأنني الصغيرة ويريد أن يضمن مستقبلي ويطمئن عليّ، ويبقى في البنك مبلغ من المال، ومِئة ليرة ذهبية، وقرأ علينا حصة والدتي التي ضمها لحصتي حسب طلبي، وموافقة أختي علياء، وأخبرنا بالمبلغ المخصص لأختي علياء.

في المطبخ، وبينما كنا نجهز القهوة، قلت لأختي علياء: "أنت الآن تملكين مبلغًا من المال يمكنكِ من أن تعيشي حياة كريمة أنت وولديك، لذلك أجد أنه الوقت المناسب لتطلبي الطلاق، وتبدئي حياة جديدة أنت وأولادك".

كانت تنظر إليّ وعلامات اللامبالاة على وجهها، وكأني أتكلم عن شيء لا يعنيها، أشاحت بيدها كأنها تقول لي هذا الأمر لا يعنيك انصرفي لشؤونك.

كررت قولي لها :"علياء" ليس من سبب يدعوك لحياة تعيسة، عندما كان والدنا حيًا، كان يزورك في بيتك ويمدك بالمال ومؤنة البيت، وعندما مات أكمل صنيعه وترك لكِ المال لتعيشي معززة مكرمة، فانتهزي الفرصة ودعينا ننتقل ونعيش في بيروت كلنا، أمي وأنا وأنتِ وأولادك، هناك سنبدأ حياة مختلفة، بعيدًا عن الذكريات، وبعيدًا عن ثرثرات الضيعة".

– لا أبدًا، لن أدع الناس يقولون إني مطلقة ويتربى أولادي بعيدًا عن والدهم، حتى لو كان سيئًا.

فوجئت بكلامها وردة فعلها، ولم أجد ما أقوله لها بعد الذي سمعته منها ورأيته.

– إذن سأبيع البيت والمحل وأذهب لأعيش في بيروت، وأتابع دراستي وعملي الحزبي.

– أتذهبين لتعيشي في بيروت وحدك؟

– نعم، وما المانع؟ أليس في بيروت فتيات جامعيات جئن من كل المناطق ويعشن في بيروت وحيدات؟.

– وأمنا؟

– أمي سأخيرها، فإن أحبت أن تأتي لتعيش معي، فليس عندي مانع،آخذها معي وأشرف على علاجها، وفي غيابي تتولى خادمة أو ممرضة رعايتها، وإن أحبت أن تبقى هنا تحت إشراف خالتي فهذا ما سيحصل، لن أعترض.

فضلت أمي أن تبقى في ضيعتنا، في البيت الذي قضت به أجمل أيام حياتها كما قالت، وحولها أهلها وصاحباتها، وأبناء بلدتها، ولم أحب أن أذكرها بأنه في هذا البيت تلقينا نبأ قلب موازين حياتنا، طلبت من خالتي

حسنى أن تخبرها بطريقتها أنني سأبيع البيت، وأنني أفكر بشراء بيت محسن الذي تركته زوجته، فهو مناسب لنا نحن الاثنتان، فإذا وافقت والدتي سأنفذ الأمر؛ لأن زوجته عرضته للبيع.

وجاءني الرد بعد يومين، ولنفس السبب الذي فكرت أن أترك بيتنا، رفضت أمي شراء بيت محسن، بل اعتبرته شؤمًا، لست أدري، لم أحب أن أضغط عليها، ولكني أخبرت خالتي حسنى، أنني عزمت أن أشتري شقة صغيرة، أو أعمر بيتًا نستقر به أنا وأمي.

وجدت خالتي حسنى أن هذا قرار جيد ووعدتني بإقناع أمي به.

وبين أخذ ورد، وافقت والدتي، فكلفت المحامي أن يعرض البيت والمحل للبيع، وخلال أسبوع تمت عملية البيع كما أردتها، وكنت قد عاينت شقة في نفس حارتنا، فاشتريتها فورًا، وكانت مؤلفة من ثلاث غرف، نوم وصالة وغرفة معيشة.

ودعت أمي وأوصيت خالتي حسنى بها، وأنا على ثقة أنها لا تحتاج لتوصية، ونزلت إلى بيروت.

في بيروت كنت قد طلبت من زملائي الحزبيين، أن يؤجروا لي شقة مناسبة قريبة من الجامعة، ومن مقر الحزب. وفي ذكرى تأسيس الحزب، أقيم احتفال كبير في إحدى القاعات فرافقت ندى زميلتي إلى هناك، وأخذنا نستمع إلى الخطباء واحدًا تلو الآخر، وكان آخر الخطباء شخصًا

أراه للمرة الأولى، صعد إلى المنبر وأخذت الهتافات تزداد، فهمست لندى:
– من هذا أنا لا أعرفه؟

كان شابًا متوسط الحجم، يميل للنحافة، وجهه بلون سنابل القمح، وعيناه واسعتان بلون الزيتون، شعره أشقر يميل للطول، يرتدي قميصًا أبيض وبنطلون جينز، وأخذ يتلو خطابه.

–إنه الرفيق وسام درويش" قالت ندى.

– لم أره من قبل.

– كان من أعز الأصدقاء لأخيك محسن، ولكنه كان في الخارج من أجل تحصيله العلمي، وعاد منذ أيام ليعاود نشاطه، إنه عضو مكتب سياسي.

– أحقًا؟

– نعم.

وفي نهاية الاحتفال وبينما توجهت لأقود سيارتي، وجدت من يستوقفني ليقول: آنسة مي يسعدني أن أتعرف إليكِ.

قال ذلك وعرفني على نفسه، وقدم تعازيه بمحسن.

– أخبرتني عنك الرفيقة ندى.

– إنها إنسانة خلوقة جدًا.

– إلى أين تذهبين؟

– إلى البيت.

– كنت أرغب أن أدعوك لنشرب فنجان قهوة معًا.

– نشربها عندي في البيت.

– أليس من إحراج؟

– ولِمَ الإحراج؟ بيتي مفتوح لكل الرفاق، وأنت واحد منهم، ثم إنك صديق محسن، فلك معزة خاصة.

في البيت جهزت القهوة، وجلست أصغي لوسام الذي أخبرني عن تعلقه بأخي محسن، وكيف أنه هو الذي ضمه للحزب، وفيما بعد أصبحا صديقين، كما أنه ساعده أن يكمل دراسته ماديًا ومعنويًا.

– غريب لم يحدثني عنك محسن يومًا.

– وهل سيحدثك عن كل أوضاعه السياسية؟!

– وهل جئت لتستقر هنا؟

– نعم، فهذه بلدي.

بقينا معا بحدود الساعتين، قال لي قبل أن ينصرف: إذا احتجتِ لأي شيء فاعتبريني رهن إشارتك، دعيني أرد ولو جزء من جميل محسن معي.

– لا تقل هذا أبدًا، محسن الآن في دار الحق، وانسَ هذا الموضوع، ولنكن رفاقًا فقط.

– نعم نحن رفاق، وهذا أهم ما في الموضوع.

– وبناء على هذه الصفة أدعوك غدًا للغداء.. ما رأيك؟

– اتفقنا، محاضراتي تنتهي في الثالثة، أنتظرك بعدها في مقر الحزب لننطلق من هناك.

في مقهى على كورنيش الروشة، دخلنا لتناول الغداء، بدا وسام سعيدًا جدًا، كان يتأملني ونظرات من ثقة واطمئنان تملأ عينيه، هل هو متصالح مع نفسه؟ مع الحياة؟هل هو مطمئن للغد ؟ترى أي نوع من الناس هو؟

أخذ يحكي عن البلد الذي غادر، عن دراسته، عن عودته، عن ضيعته، وأهله وإخوته، وكيف أنهم لا يقيمون وزنًا للتعليم، بل إن حياتهم تقوم على الزراعة وربح المال وقضاء الوقت بأشياء غير مفيدة، فيشعر بالغربة بينهم، ولكنه يحبهم ويشتاق لهم ولا يستطيع الاستغناء عنهم. وعاد يحدثني عن فاجعته بمحسن، وكيف أنه لو لم ينتهِ من دراسته وحان موعد

رجوعه، لكان جاء خصيصًا لتعزيتي وتعزية الحزب، فكان هذا الكلام بمثابة ضغط على الجرح المفتوح، فأخذت دموعي تسيل، فما كان من وسام إلا أن مسح دموعي هامسًا: دموعك غالية يا مي، محسن لن يقبل بحزنك ونحيبك، أنت شابة وتستحقين الحياة والحب، فلا تستسلمي للحزن.

– لو حزنت العمر كله فلن أفي أخي حقه.

– أعرف مشاعرك جيدًا، ولكن الحي أبقى من الميت، والحياة تنادينا، ومحسن سيكون سعيدًا بقبره حينما يعلم بنجاحك في جامعتك واستمرارك في عملك الحزبي، وأنا سأبقى بجانبك لن أتركك، ولن أخذلك، ولن أفرض نفسي عليك، حقًا إنني لن أملأ الفراغ الذي تركه محسن، ولكن سأحاول أن أجد لي مكانًا في حياتك.

لم أجد كلمة مناسبة أرد بها عليه، فكرت..هل أقول له مكانك موجود!

هل أخبره واعترف له أنني أعجبت به، وشعرت أنني أعرفه منذ الأزل، وأنني لم أشعر يومًا أنه غريب عني، لست أدري هل كان كل ما يقوله صحيح، أم أنه فقط أراد الاقتراب مني.

سألته بين المزاح والجد: وهل عدت خالي الوِفاض من تلك البلاد؟

فهم ما أرمي إليه، فقال وهو يبدي خجلًا وتحفظًا: الحقيقة، كانت لي علاقات، صداقات، ولكنها كانت عابرة، ارتباط حقيقي

-لا أخفي عليكِ..لم يحصل.

- لماذا؟

- هناك أكثر من سبب، ولكن المهم النتيجة.

لست من مشجعي الزواج بأجنبية، فهي لن تنسجم مع عاداتنا وتقاليدنا، ثم مم تشكو ابنة بلدي؟ توجد الكثيرات من الفتيات الرائعات، وكما قالت أمي عليك أن تشير إلى أي فتاة لأخطبها لك.

عجبت من هذه الطريقة التي يتكلم بها، فسألته: وهل ستتزوج عن طريق أمك؟

- أكيد كلا، وأنت يا مي، هل في الأفق شيء؟

عندما كان والدي على قيد الحياة، كان يأتيني كل يوم بعريس، فكان أخي محسن يحاوره بهدوء وروية وأعصاب باردة، وعادة ينتهي الحوار بعبارة:"مي من حصتي، أنا الذي سأختار لها العريس المناسب".

- هكذا إذن.

- نعم.

- والآن؟

- أفكر بالدراسة وبعملي الحزبي، حتى يأتي الوقت المناسب.

- أو العريس المناسب.

قلنا ذلك معًا وضحكنا.

* * *

سارت دراستي في الجامعة كما أريدها، وكنت أزور أمي كل أسبوع لأطمئن على صحتها، وأعرج على أختي علياء التي أجدها كما تركتها في مكانها، كما لو كانت حجرًا، أما زوجة أخي فلقد علمت أنها حضرت وأنهت عملية بيع البيت وغادرت دون أن تفكر بالسؤال عني، قضت يومين في الأوتيل بدون أولادها.عملي الحزبي كان منتظمًا.

بعد أيام تحل الذكرى الأولى لموت أخي محسن، كنت متوترة جدًا، وأنا أستعيد تلك الأيام وأحلل كيف تغيرت حياتنا فجأة، وكيف انهارت أحلامنا واستقرارنا، حقًا إنني بفضل المرحوم والدي لم أتعرض للفاقة والعوز، ولكن أنا في عوز عاطفتي، في فاقة روحية، لولا أصدقائي الحزبيون، وصديقة لي في الجامعة تدعى لمياء حسان، وزيارات أقوم بها لضيعتنا، لكنت أشبه بطفلة يتيمة تفتقد الحنان والحب، في هذه الأيام كثف وسام وجوده إلى جانبي، كأنما يعوضني عن وجود محسن.

أصبح لقائي بوسام شبه يومي، وغدت العاطفة بيننا مثل نبع يتفجر من الداخل، فيسقي الأرض العطشى المزهرة.

وطلب مني بعد مرور عام على وفاة أخي أن نعلن خطبتنا، حتى نغلف الحزن بالفرح، ونؤكد لمحسن تواجدنا معًا وحبنا له.

فرح أهلي بهذا الخبر، فأحسست بأن الحياة بدأت تدب في أطراف أمي، وأختي علياء أظهرت الكثير من السرور الذي غاب كثيرًا عنا جميعًا، فكأن الفرح نفخ فيها روح التحدي والمقاومة، فقالت لي: أنتِ ستتزوجين بينما أنا أفكر بأن أطلب الطلاق.

أما خالتي حسنى فقد احتضنتني بقوة، وقالت لي هذا شاب ممتاز اختاره الله ليظهر في حياتك بوقت مناسب، حافظي عليه.

بعد الخطبة أخذت أشعر باستقرار نفسي، يتسلل رويدًا رويدًا في حياتي،دراستي وعملي الحزبي ووسام وأصدقائي، حماسنا للقضية التي نؤمن بها، مشاريعنا وسهراتنا وطموحنا.

لكن تغيرًا طرأ على وسام لم يكن له دليل حسي، إنما شعور المرأة الداخلي، فهو يتغيب عني أيامًا بدون مبرر، وحين يعود فأسأله يعطيني سببًا غير مقنع، أو لا يرد.

وأحيانًا يتحدث معي بطريقة غير لائقة بحبيبين، في البداية فضلت أن أتريث، وأفكر في الموضوع، وأسأل نفسي هل تراني ارتكبت بحقه غلطة، هفوة، خطأ جعله يعاملني بهذه الطريقة؟

أم أن الشعور بالمسؤولية هو الذي يدفعه لذلك؟ يقال بأن الرجل يشعر بثقل المسؤولية حين يقرر الزواج.

ولكن أنا لن أطالبه بشيء، عندي كل شيء، حتى إن والدي رحمه الله كان قد اشترى جهازي قبل أن يجهز كفنه، وأمي أطال الله عمرها كانت تطرز لي الملاءات وشراشف الطاولة، حتى المزهريات وأدوات المطبخ كلها كانت قد جهزتها لزواجي، فقط هو من أحتاج إليه، وعندما وجدته أكمل حلقتي الفارغة.

– إذن أين المشكلة؟

– صديقتي ندى ما إن شعرت بما أعانيه، قالت لي: ألم تستعجلي في إعلان الخطبة؟

– أنت تقولين ذلك والآن؟

– أنت لم تسأليني رأيي، أنت فقط أخبرتيني، حتى لم تسألي أي من الرفاق المسؤولين، ونحن فوجئنا بذلك، ولكن احترمنا رأيك وقرارك وتركناك تواجهي ما أقدمت عليه.

– هذا كلام خطير يوحي بالندم والخوف والتردد.

– يا مي انظري لجزء الكأس الممتلئة وليس الجزء الفارغة.

– ولكن الوضع هنا يختلف.

– هل هناك إنسان بلا عيوب؟وسام له عيوب ككل إنسان.

– وما هي عيوبه؟

– سؤالك جاء متأخرًابعض الشيء، وعيوبه ستكتشفينها عاجلًا أم آجلًا.

– إذن فأنتم تعرفون أشياء ولم تلفتوا نظري لها ولم تخبروني.

– قلنا لعله تغير، على الأقل يجب أن يتغير من أجلك، أو من أجل الرجل الذي منحه فرصة تأمين مستقبله.

– ربما كانت خطبته لي ليرد جميل هذا الرجل.

– ربما.

– ماذا تقولين؟

– أقول:ربما.

– وربما هناك سبب آخر.

– لست أدري.

وحين واجهت وسام، وسألته عن تغيبه وعن مبرراته التي لم أقتنع بها، صمت وقال:"لا شيء، ولكن أنا أختنق بجو بيروت، ولست معتادًا عليه، أذهب لقريتي أو لأي مكان آخر، وعندما ترتاح نفسيتي أعود".

– ولكن لماذا لم تخبرني كي أذهب معك؟!

– كلا، لن أفرض أوضاعي النفسية عليك، عندك عملك ودراستك، وليس من الضروري أن تتفرغي لي.

– ولكن إنها حالة مؤقتة وستنتهي، أليس كذلك؟

– ولم تريدينها أن تنتهي، وما يضرك في الأمر؟

– ولكنك خطيبي، وستصبح زوجي.

– أنا خطيبك، ولست ملكًا لك.

– ومن قال إنك ملك لي؟

هكذا انتهى حوارنا، وسام انصرف غاضبًا، وأنا لم أطالبه بأن يبقى.

صدمت بكلامه، لم أصدق ما سمعت، أحسست بأن شخصًا غريبًا يكلمني، لم أسمع صوته قبلًا، لم أرَ نظرات الغضب في عينيه، ونظرات الاستغناء؟سمعت صوته يقول لي: اذهبي، لا مكان لكِ في حياتي، أنا حر.

ولكن هل تراني استعجلت بإعلان الخطبة؟ ومن هو وسام؟ هل أنا أعرفه معرفة حقيقية ؟ إنه صديق لم يحدثني أخي عنه يومًا، لم أرَه في بيتنا، قد يكون مجرد شاب أحسن أخي إليه وساعده ليكمل دراسته، وأحب هو بل فكر أن يرد الجميل، ولكنه أساء لي وجرحني، أنا مي بدران طالبة الطب، الجميلة المدللة، الحزبية، هكذا يؤول مصيري؟

ولكن ما الذي بيني وبين وسام؟ تناغم؟ انسجام؟ أم أنه مجرد استلطاف؟أم حب؟ وما الذي أعرفه أنا عن الحب؟وهل عندي أو لي تجربة في الحب مع الرجال؟

مرت أيام لم يتصل بي وسام، ولا أنا اتصلت به، ولكن مع مرور الأسبوع، اتصل في الصباح، رددت عليه بلهجة باردة، استأذن أن يحضر لنتحدث، فاعتذرت بأن لدي محاضرات، قال: إذن نتناول الغداء معًا؟

– "لا"..

قلتها رافضة بحسم.

عاد يسألني بنفاذ صبر:

– وغدًا أنت مشغولة أيضًا؟

ظللت صامتة..

وكأنه عرف أنني لن أرد عليه، فقال:"مي يجب أن نتحدث؛ إكرامًا لروح محسن". وكأنه مسني في الصميم، فوافقت أن نلتقي في أحد المقاهي، وعند الموعد تعمدت أن أتأخر، وعند وصولي وجدته متوترًا، ولكنه احتفظ بأعصاب هادئة وهو يرحب بي، ويسأل عن أحوالي، فيما أنا تعمدت أن أنظر إلى الساعة، وأن يقول ما لديه لأني مستعجلة، وكأنه شعر بأنني لم أكن أرغب بلقائه، فقال:"كأنك تقولين لي بأنه لم يعد من مبرر لوجودي في حياتك".

– أنت الذي أوحيت لي بذلك.

– كلا أبدًا، ولكن أنا كنت أمر بأزمة نفسية، وقد انتهت بإذن الله.ولكن يا مي، أنا عندما أكون مأزومًا أتفوه بعبارات غير مناسبة، يجب أن تتعودي عليّ وتتحمليني.

– ولماذا يجب؟

– لأنك خطيبتي.

– أنا خطيبتك ولست ملكك.

ابتسم ابتسامة المهزوم، ابتسامة من يصنع السم ويأكله.

قلت ذلك واستأذنت، طلب مني البقاء، ولكني اعتذرت.

أسرعت أقود سيارتي بسرعة جنونية، لم أفكر إلى أين سأذهب أريد أن أقود وأقود إلى ما لا نهاية، ولا أريد أن أصل إلى هدف.

لماذا يعاندني القدر؟

في البداية أخذ أخي الوحيد، ولم يمهل أبي الذي رحل هو الآخر بسكتة دماغية حزنًا على ابنه، أمي بقيت على قيد الحياة، ولكن عاجزة محطمة خائرة النفس.

والآن الرجل الذي توسمت فيه الخير والأصالة يخدعني، يهمشني، يرميني في بئر الإهمال واللامبالاة.

وأنا ما الذي أريده؟ إلى أين أريد أن أصل؟ أين هي عائلتي؟ أين هم أهلي؟ لمن أنتمي؟

تمـاس

قال نزار موجهًا حديثه لريم:"من بين المهمات التي يجب أن تنجزيها في غيابي، مقابلة مع الفنان فؤاد عزت، وضعتُ لكِ الأسئلة، عليك إجراء المقابلة وأخذ صورتين له، والحديث أيضًا عن رحلته مع الموسيقى، ها هي ورقة الأسئلة"نظرت إليه وإليها وقلت:"ليس من مشكلة سأجري المقابلة".

دخلت ليلى فوجدت ريم تلم أغراضها استعدادًا للمغادرة، فسألت: هل نذهب إلى البيت؟

نظرت إليها ريم وقالت: أمامي عمل ربما يحتاج مني لساعة أو أكثر، هل ترافقيني؟

– إلى أين؟

– سأجري حوارًا مع فؤاد عزت.

– منذ متى أنتِ تغطين هذه النشاطات؟

– الحقيقة أنها من اختصاص نزار، ولكنه كلفني بها قبل سفره، وأنا لم أعترض.

– ولماذا تعترضين؟ هل هناك أروع من الحديث عن الموسيقى مع فنان حقيقي؟

– تعرفين أنه لا يبهرني أحد..

– رغم تعبي سأرافقك، وأقوم بدلًا منك بمهمة التصوير.

– المكان بعيد؟

– كلا، إنه قريب حتى إننا لن نحتاج سيارة.

خلال عدة دقائق من المشي وصلنا إلى مستديرة الطيونة ، حيث تقع "استراحة الزمن الجميل"، هناك اعتاد فؤاد عزت مواعدة أصدقائه ومعارفه، وكل من يسعى للقاء معه.

كانت الاستراحة فسيحة وجميلة، تنقسم إلى جزئين خارجي وداخلي، بابها الخشبي الذي يشبه باب كوخ في إحدى القرى لا يوحي بأن وراءه يختفي هذا المكان البديع في تناسقه، الجزء الخارجي خاص بالمدخنين، تظلله دالية عنب من الجانب الأيسر، وشجرة جهنمية كبيرة من الجانب الأيمن، كماتصطف على الجانبين أصص ورد وياسمين وفل، وفي الداخل ضم المكان أشياء كثيرة، كلها ترتبط بزمن مضى، ازدحم الجدار الأيمن للمكان بلوحات لنجوم الغناء والسينما، أم كلثوم إلى جانب فاتن حمامة، وعبد الحليم حافظ بجوار سعاد حسني وصباح، صورة فريد الأطرش تتجه نحو نادية لطفي، وفيروز في صورتها الشهيرة وهي تمسك فنجان القهوة تتجاور مع نعيمة عاكف، وفي الركن البعيد بيانو قديم، وعلى أحد الرفوف توجد آلة بزق، وأواني فخارية صغيرة.

معظم الطاولات كانت مشغولة،أخذت الصبيتان تتجولان في الجزء الذي يوحي ديكوره بالحداثة، حيث توجد على الجدران لوحات لوجوه ومناظر طبيعية، ولوحات سريالية، ريمكانت تتأمل لوحة معينة ثم قالت لرفيقتها:انظري ما أجمل هذه اللوحة!.

كانت اللوحة تجسد وجه فتاة، ينضج وجهها بالنضارة، ولون أحمر الشفاه يزيدها جمالًا، أخذت ريم تتأمل باقي اللوحات وتسجل انطباعاتها، بينما ليلى كانت تصور بعض اللوحات.

استحوذ المكان على اهتمام ريم، فانشغلت في التنقل بين الطاولات إلى الحد الذي أنساها السبب الذي جاءت من أجله، إلى أن نبهتها ليلى قائلة وهي تومئ برأسها نحو الباب:"أظن أن علينا الآن إجراء المقابلة".

* * *

عندما خرجتا من الاستراحة، عرفت ريم أنها ستعود حتمًا إلى هذا المكان، كانت تفكر في لقائها مع فؤاد عزت في نظرته المندهشة لحظة رؤيتها، حتى إنه كاد يوشك على قول شيء ما، لكنه لم يقل إلا كلمة"غريب"، ولم تدرك ريم ما كان يقصده من الكلمة.فكرت كيف كانت مبهورة من حكاياته وتجاربه، ومن قدرته على إثارة اهتمامها بهذا الشكل، غمرتها ارتعاشة طفيفة رغم أنالسماء صافية، إنه شهر أكتوبر الذي تحب، حيث تكون بيروت في أجمل شهورها.

فؤاد عزت

دروب الغريب دروبي.

مضى عشرون عامًا على التحول الأول الذي حدث في حياتي،وها أنا أقابل التحول الثاني.

كم من الأشياء حدثت خلال هذه الأعوام!ربما لم يتسنى لي الوقت للتفكير بها بعمق وتقييم أهميتها، ومدى حقيقية ما حدث.من محاسب مجهول في شركة إلى فنان مشهور يجوب العالم، هذا هو أنا، والآن رجل في الثالثة والخمسين يقع في الحب كشاب مراهق.

كان لقائي مع تامر رضا نقطة تحول في حياتي، رغم أنني لم أعد ألتقي به كثيرا الآن، ولكن كلما التقينا أذكره بما فعله بحياتي، فيبتسم ويقول لي:"أنا لم أفعل شيئًا، وقد كان لي شرف التواجد بحياتك".

مع أستاذ الموسيقى اكتشفت نفسي، وعلاقتي مع الموسيقى، وبعد مرور خمسة أعوام كنت بدأت العزف وتأليف مقطوعات أبهرت أستاذي، وأبهرتني أنا شخصيًا، وبدأت رحلة التحول.

نجاة هي المرأة الأولى في حياتي، فقد كبرتُ في ظل تربية والدي المتزمتة لنا، استدعاني ذات يوم وأخبرني أنه اختار لي ابنة عمي نجاة للزواج ولم أرفضها؛لأنه لم يكن من سبب يدعوني لأن أرفضها، وقد عشت معها

حياة عادية لا تخضع لسؤال أو جواب، ولولا عملي الفني والتحاقي به، لكنت الآن زوجا عاديا، ربما يشكو من ترهل الكرش،ويقضي وقته في الزيارات العائلية والمستشفيات ولعب الورق.

النساء اللواتي تعرفت إليهن خلال سفري ومعارضي كثيرات، منهن الجميلات والمثيرات، وبعضهن شهيرات، في بداية أسفاري كنت مبهورًا بكل امرأة أقابلها.

ولكن فيما بعد لم تعد تثيرني وتلفت نظري إلا قلة قليلة من النساء.وفيما بعد استقرت علاقاتي مع مجموعة من النساء، منهن الصديقات، والحبيبات، والعشيقات، ولكن قبل مجيئي إلى بيروت بستة أشهر، شعرت بشيء يشبه الحب تجاه امرأة معينة من صديقاتي، وهي بادلتني المشاعر، أخذت أنتظر لقاءها، وسماع أخبارها ومحاصرتها، وهي سعيدة ومستمتعة، وأخذت أشعر بثقل في رأسي، وصعوبة في التركيز، كنت أتخيل أنني مربوط قرب خط الاستواء، كيفما تحركت سأموت، الخطر جعلني أفكر بتغيير الاتجاه، وأخذت أفكر بأقصر طريق للاختفاء، وعندما عرض عليّ السفر إلى مسقط للعمل في الأوبرا السلطانية وجدت أن هذه هي الفرصة التي أتمناها.

لكن مع ريم لا تبدو الأمور هكذا، منذ رأيتها في اللحظات الأولى حين كانت تنتظر صديقتها في المطار، عرفت أن ثمة شرارة لهب أنذرت باشتعال حريق لو حدث والتقيت بها مرة أخرى. وهذا ما كان.

لقاء

في اليوم الثاني من لقائها مع فؤاد عزت تلقت ريم اتصالًا مقتضبًا منه قال: إذا دعوتك لشرب فنجان قهوة فهل تقبلين؟

– ولم لا؟

– غدًا في نفس المكان، في السابعة مساءً إن كان مناسبًا لك.

تمتمت وهي تحس بذات الارتباك الذي غمرها عقب لقائها الأول معه :

– في استراحة الزمن الجميل.

– ولكن لا تتأخري.

في اليوم التالي جاءت، تلبس (تي شيرت)، وتنتعل حذاءً رياضيًا، وتربط شعرها بشريط أسود إلى الخلف، ولا تضع أيًا من الرتوش على وجهها، وصلت حسب الموعد.

ابتسم وهو ينظر إلى الساعة، فهمت ما يرمي إليه، ألقت السلام وهي تجول بنظراتها على المكان تحس أنه بات مختلفًا في المساء عنه في الظهيرة، كأنه صار أكثر حميمية وإيغالًا في الماضي.

سألته: ماذا تفعل في هذه الأيام؟

– ليس عندي مزاج.

– ومتى يكون عندك مزاج؟

قال: أدعوه أحيانًا فيلبي، وأحيانًا يطيح بأوامري جانبًا.

فكرت بكلامه، أشياء لا تأتي بالصراخ، ولا بالتوسلات، تأتي فقط بالحب.

– وماذا تفعل إذن؟

– أقرأ، أقرأ بشغف، أستمع للموسيقى، أزور بعض الأصدقاء، أو بعض الأماكن التي أجلت زيارتها.

– أنت تحب القراءة إذن!

– نعم أحبها، ولكن ليس عندي جلد عليها دائمًا، القراءة تحتاج لجلد طويل.

– نعم القراءة تحتاج لطول بال وصبر ونفس طويل، صديقتي ليلى تدخل إلى البيت، تبدي تبرمًا واستياءً مني، حين تدعوني للخروج فأرفض بحجة إكمال كتاب، وعندما أتأخر في السهرة، وأنا أتابع القراءة، تصرخ وتقول: ألا تملين، إنني أحسدك وعندما تجدني جالسة أكتب، تسألني:

– ماذا تكتبين؟

– مجرد خواطر.

تعود بعد قليل لتسألني ألا تتعبين؟

وعندما أجلس للكتابة، تدخل وتخرج ولسان حالها يقول: ألم تنتهِ بعد؟أنتِ امرأة خارقة!

– هل أنت مشغولة يوم الأحد؟

– لا، لماذا؟

– كنت أفكر بأن أدعوك للغداء عندي.

فوجئت، ولكنها لم تحب أن تظهر دهشتها، أو امتعاضها.

– وهل تعرف شيئًا عن الطبخ؟

– نعم، هناك بعض الأكلات التي أجيدها.

– لا، دعني أنا أدعوك للغداء، يمكنك أن تكون في ضيافتنا أنا وليلى، نحن نسكن معًا، هي أيضًا سترحب بلقائك مرة أخرى.

فكر، ترى لماذا تريد لقائه في حضور صديقتها مثل أي فتاة مراهقة؟ممَ تخاف؟ بإمكانها أن تعتذر، ولكنه أخفى انفعالاته، وقال لها:

– يسرني طبعًا قبول دعوة فتاتين جميلتين مثلكما.

الآن ماذا أفعل وأمي تنتظر زيارتي، وأولاد أختي علياء الذين يعتبرونني خلاصهم، والمثل الأعلى لهم، ماذا يكون وقع منظري عليهم ؟ وخاصة أمي التي لم يبقَ لها غيري تستند إليه.

كلا، يجب أن لا يراني أي من أفراد أسرتي بوضعي هذا، وخاصة أمي. أيقظتني ندى من أفكاري المتشابكة المضطربة، وسألتني بلهفة: أخبريني ما الذي تريدينه مني أن أنفذه في الحال؟

قلت لها: غدًا موعدي لزيارة أمي، ولكن ستزورينها أنتِ بدلًا مني.

هزت ندى رأسها إيجابًا، فأكملت: سأعطيك مفتاح البيت، تذهبين وتحضرين المال والهدايا التي أحضرتها لهم، وسأكتب رسالة لأمي وستخبرينها أنني سافرت من أجل الدراسة على عجل، وسأؤكد لها أنا نفس الكلام، لا تحددي وجهة سفري، ويجب أن تؤكدي لها أنني سأواظب على مراسلتها أسبوعيًا، وسأرسل لها الأدوية وكل ما يلزمها.

ربتت ندى على كتفي وقالت: تكرم عينك، سأنفذ ما قلتيه لي حرفيًا.

وأكملت: أما بالنسبة لأختي أو خالتي، فتخبريهم نفس الأخبار، فقط اسأليهم إن كانوا بحاجة لأي شيء أرسله لهم.

مرت ثلاثة أشهر كان رفاقي ورفيقاتي وصديقتي لمياء لا يقصرون بأي واجب نحوي، وكانوا يزودونني بالكتب والمجلات والنشرات الحزبية، ولكن ندى ولمياء كانتا الوحيدتين اللتين تهتمان بكل التفاصيل المتعلقة بوضعي الصحي، ووسام كان حاضرًا أيضًا ما إن تضطر إحدى الفتاتين للخروج لسبب اضطراري أو كلتيهما، حتى أراه قد أقحم نفسه بغسل شعري، أو تنظيف وجهي، وإطعامي، رغم أنني أستطيع أن آكل لوحدي، فيدي سليمتان، وأنا أنتهز الفرصة لأصرخ في وجهه وأعنفه، فيتحمل الإهانات ولا يعترض، ويبتسم ويقول لا تنسِ أنني درست الطب، ودراسة الطب تحتاج لصبر ومثابرة.

وكنت أتأمل حاله، فأجده أشبه بطفل، كسر لعبة ويحاول إصلاحها فلا يستطيع، ولكنه يمسكها ويحاول مرة أخرى، أنظر إليه فأشعر أحيانًا بحنين لأيام مضت، لمشاعر حميمة حصلت بيننا، للحظات غمر الواحد فينا الآخر بحب، ولكني أكبح مشاعري، وبالكاد يلتقط مني ابتسامة، سرعان ما يكتشف أنها باهتة، أو صفراء، أو ساخرة.

في الشهر الرابع بدأت أتحسن، أخبرني الطبيب بذلك وأكد لي بأنني سأعود كما كنت، وأستطيع أن أعود لممارسة حياة طبيعية.

قال لي وسام تعليقًا على كلام الطبيب: وأنا أكون قد أكملت تجهيز عيادتي فتعملين معي.

– ماذا سكرتيرة ؟

سألته ساخرة.

– بل طبيبة.

– لقد انقطعت عن الطب، تركته بسببك، لن أسامحك!

صمت قليلًا ثم قال: في العيادة معي ستتعلمين أشياء تفيدك كما الدراسة.

– تتكلم وكأنك واثق بأنني سأعمل معك.

– إنه أمر حزبي.

– الحزب لم يجبرني يومًا على شيء.

في هذه الأشهر، وفي هدأة الليل وبعد أن ينصرف الجميع، أخلو لكتبي ونشراتي الحزبية، أتصفح المجلات ودواوين الشعر، وأقرأ ما تيسر من الرواية، لم أكن قبلًا أقرأ كثيرًا، لكني كنت أحب الشعر، بدر شاكر السياب، ومُحَمَّد الفيتوري، وشعراء الأرض المحتلة وشعراء المهجر، وكنت أحب شاعرة فلسطينية اسمها فدوى طوقان، وشاعرة عراقية اسمها نازك الملائكة، ووجدت نفسي أكتب الشعر، عني وعن وسام، عن أخي محسن، عن أبي، عن الطبيعة الجميلة في بلدتنا، عن البحر في بيروت، ولكن عندما أشعر بدخول وسام أخفي دفتري، فيبتسم وسام ويقول: تكتبين عني؟ تشتمينني بلا شك، أليس كذلك؟

فكنت أتركه حائرًا فلا أرد عليه.

حتى كان يوم حضر لزيارتي رئيس تحرير مجلة الحزب، فأطلعته على ما كتبت، وطلبت منه أن يقول رأيه بصراحة، فأبدى إعجابه بعدد من القصائد، وقال لي: أنا مستعد أن أنشرها لك.

لم أصدق ما أسمع، تخيلت أنه يجاملني كوني مريضة، فأكمل:"إنها شعر، لغتك سليمة، صورك جميلة، هناك موسيقى ومعانٍ، لم لا! باستطاعتك إصدار ديوان، ولكني لا أعرف الديوان كم قصيدة يجب أن يحتوي؟ دعيني أسأل، فأنا صحفي ولست بناشر، أعدك سأرد عليك خلال أيام.هل ترين؟ لم تضيعي وقتك في المستشفى، ألم تستطيعي أن تتلقي دروسك في الطب؟أصبحتِ شاعرة، رب ضارة نافعة"ثم ابتسم وهمس لي:"آن الأوان أن تصفحي عن وسام، بل يجب أن تشكريه.

– أشكره .. ماذا تقول؟

– إنني أمزح، ولكن لولا هذا الحادث كيف كنت ستتمكنين من قراءة كل تلك الكتب التي أحضروها لك وكتابة ديوان أيضًا؟

قال ذلك واستأذن، ربما خاف من ردة فعلي، أو غضبي، أو اعتراضي لما حدث لي، لكني استجمعت نفسي وسألته متى أستطيع إصدار الديوان؟

– في أقرب فرصة، فقط اجمعي القصائد في خط جميل، وأنا سأكلم الناشر وسنختار من يصمم الغلاف على ذوقك، وسيضاف اسمك لعالم الأدب، عدا أنكِ طبيبة.

سررت لكلامه وكأنني تلقيت كنزًا، ولكن عبارة عدا عن أنك طبيبة لفتت نظري فقلت له:

– لم أصبح بعد.

– سوف تصبحين.

مرت الثلاثة أشهر على خير، تعافيت خلالها تمامًا، صحيح أنني عندما أمشي أشعر بثقل وتعب، ولكن هذا شيء طبيعي، حمدت الله كثيرًا، وشكرت صديقاتي ورفاقي، وتوجهت بشكر بارد لوسام.

كان أول شيء أفكر بتنفيذه هو زيارة أمي، اشتياقي لها يفوق أي وصف وأي تخيل، وكذلك أختي علياء وخالتي حسنى، وأولاد أختي، بيتنا، وضيعتنا.

عند وصولي، ورغم الاستقبال الحار الذي استقبلوني به، لكن نظرات أمي تركزت في ساقي، فأخبرتها أنني كنت أساعد بنقل أحد المرضى خلال تدريبي في أثناء دراستي فتزحلقت والتوت ساقي، ولكني تعافيت والحمد لله، ولكن لماذا أحسست أنها لم تصدقني؟هل لأن قلب الأم يعرف ويشعر

كما يقال؟فسألتني: ولماذا أنت ناحلة وصفراء هل كنت صائمة طوال تلك الفترة؟

– تقريبًا على فراقكم يا أمي، فأنت تعرفين أنها أول مدة أقضيها بعيدًا عنكم، لقد افتقدتكم كثيرًا.

هزت رأسها كأنها تقول لي: وماذا باستطاعتي أن أفعل سوى أن أصدقك؟،"ووسام؟" عادت تسألني.

– إنه يزورني باستمرار.

صمتت بشكل مبهم، ولم تعلق كأنها لا تصدق كل ما أقول.

* * *

بعد مرور عدة أيام، تلقيت اتصالًا من رئيس التحرير قال لي:

– عندي لك أخبار سارة، بماذا تريدين أن أبدأ؟

– ابدأ بأجملها.

– أولًا سيطبع ديوانك خلال أيام، وقد اتفق بشأنه، حتى الغلاف أصبح جاهزًا، وكذلك اختير العنوان من إحدى القصائد.

– أحقًا سأغدو شاعرة بين ليلة وضحاها؟ هذا ما لم أكن أحلم به يومًا.

وهمست في نفسي: شكرا يا وسام، وأحسست أنني صفحت عنه.

– "ثانيًا، ستفتتح عيادة وسام،وستكونين أنت الطبيبة المساعدة له، تعملين معهوتتعلمين منه، وطبعًا ستعودين للجامعة لإكمال دراستك.وسنقيم احتفالًا بهذه المناسبات جميعها، الحمد لله على السلامة.

هذا الهاتف جعلني أستعيد ثقتي بالحياة، وأشعر أنها عادت لتصالحني بعد أن كشرت أنيابها في وجهي، أحسست أن ديواني هو أجمل مفاجأة لم أحلم بها، وتذكرت أسماء أطباء شعراء، سمعت عنهم أو قرأت لهم، وهناك أطباء مارسوا العمل السياسي إلى جانب الطب.

بقيت أسيرة الأفكار الإيجابية صامتة، أتأمل وأفكر دون أن أتحرك من مكاني، حتى أيقظني من تأملاتي رنين الهاتف، رفعت السماعة فسمعت صوت وسام، استهل هاتفه قائلًا: أحببت أن أتركَكِ تزورين أهلك وترتاحين، كيف أنت الآن؟

– أنا بخير.

– هل أستطيع أن أزورك لنشرب القهوة؟

– الآن لا، غدًا ربما.

– ولماذا غدًا؟

– هكذا أفضل، ولا أعتقد بأن أحدنا مشتاق للآخر.

– بلى أنا مشتاق لك، وأحب أن أحضر لأطمئن عليك، ثم لا تنسي أنني طبيب.

– لم أنسَ ولكن أنا الآن متعبة، وفي الغد سأكون أحسن، ولن أرفض زيارتك فأنت قدري كما ترى.

– المهم ماترينه أنت.

– أنا رأيت ما فيه الكفاية.

– غدًا صباحًا لن أشرب القهوة إلا معك.

– أنتظرك.

* * *

في حفل بسيط حضرته خالتي حسنى، وأختي علياء وأولادها تم توقيع ديواني، ورغم أنهم لا يقيمون وزنًا لأمور كهذه، إلا أنهم كانوا سعداء وفخورين بي، كانت خالتي حسنى تتأملني بعينين ملؤهما الثقة والتقدير،

وكذلك أختي علياء وأولادها سامر وسناء كانوا سعيدين جدًا بي، كما لو أنني رائدة فضاء، وبعد الظهر عادوا فحضروا افتتاح العيادة التي سأعمل بها مع وسام، وهم لا يعرفون شيئًا عن الذي حصل، وقد نبهت الجميع من الرفيقات والرفاق ليحتاطوا من أي سؤال.

فوجئت بأن داخل عيادة وسام سيكون هناك قسم خاص للأسنان، تديره طبيبة اسمها لبنى زيدون ومعها والدها، كانت الطبيبة قصيرة القامة، ذات وجه أبيض وعينين واسعتين، وأنف كأنه أنف صقر، وفم واسع تبدو منه أسنان بيضاء كبيرة متفرقة، كانت تربط شعرها للخلف بشريط حريري أسود، وتلبس ملابس تشبه ملابس الكشاف.

سألت وسام:"لماذا لم تخبرني عنهما؟"

قال: "الحقيقة لم أكن أعرف، يبدو أن شيئًا طارئًا حصل جعل الحزب يقبلهم بيننا، فالذي أعرفه أن هذا الرجل وابنته من أنصار الحزب لا أكثر، ولكن ربما يفكرون بتنظيمهما، على كل حال هما في قسمهما، والعيادة تتسع، الرجل يعمل في التقويم وابنته تساعده، وهي طالبة طب في سنتها الأولى، والحزب مسؤول عن شؤونهما المالية وليس نحن".

- معك حق.

ونحن سنتعامل معهما على أساس أنهما جيران يجمعنا مكان واحد وليس أكثر، وليس من خلفية سابقة بيننا.

– ولكن لماذا فرضهم الحزب علينا؟

– لست أدري.

منذ اللحظة الأولى لتواجدها أحسست بأن الدكتورة لبنى متحفظة معي، بينما تفرح وتنفرج أساريرها عندما تتحدث إلى وسام، ولم أعرف لماذا؟

كنت أتابع دراستي في الجامعة، وأداوم في العيادة بعد الظهر، حيث كان الإقبال شديدًا على العيادة، هل لأن التسعيرة رمزية؟ أم لأن الكثير من الأدوية كانت متوفرة بسعر زهيد وأحيانًا بالمجان ؟ذلك أنها كانت تأتي كتبرعات من عدة بلدان، وهذا العامل أسهم في تشجيع الناس على المجيء إلى العيادة، كنت أساعد وسام وأراقب عمله مراقبة الذي يريد أن يستفيد وأن لا يضيع الوقت، أحيانًا أعطي الحقن للمرضى، أو أغير الجروح، وكأنوجودي في العيادة أعاد الحب إلى قلبي وجعلني أفكر بأن أصفح عن وسام، وهو بدوره كان حريصًا أن يأتيني بباقة ورد بين يوم وآخر أو هدية صغيرة تمس مشاعري، كنا نسهر في بيته أو بيتي، وسألني ذات مرة:"متى نتزوج؟".

أجبته:"لست أدري، ولكن لا يزال هناك وقت للتفكير في الموضوع".

كان ثمة شيء يبعد فكرة الزواج عن تفكيري، وثمة مكان في قلبي يكلله السواد في علاقتي بوسام، وكان في بعض الأحيان يتغيب ويتصل، ويعطي مبررًا لا يقنعني به.

إلى أن جاء يوم تغيبت به عن الكلية، فلقد كنت أشعر بتعب وإرهاق، لم أتصل بوسام، بقيت نائمة في سريري، وحين شعرت بالتحسن، أحببت أن أفاجئه بحضوري، قدت سيارتي بمزاج وردي، وما هي إلا دقائق كنت قد وصلت إلى العيادة، عند مدخل العيادة سمعت ضحكات عالية، كانت تصدر من وسام ود.لبنى، وقفت مذهولة أتأمل المشهد، فوجئ وسام بي، ألقيت عليهما السلام وسط ذهولي.

انصرفت إلى غرفتها، دون أن ترد السلام عليّ، ووسام دخل إلى عيادته، وأنا لحقت به، وسألته:"منذ متى أصبحتما صديقين؟ لم تخبرني"

– نحن زميلان في مقر واحد ونتحدث بأمور عادية، وقد كانت هناك أشياء مثيرة للضحك، فضحكنا، هذا كل ما في الأمر.

– إنه ضحك اثنين تجمع بينهما علاقة متينة وحميمة، وليست علاقة عمل.

– لا ليس صحيحًا، الفتاة موجودة ووالدها معها.

– أين هو والدها؟ لماذا ليس موجودًا معكما ليشاركما الضحك؟

– مريض هو اليوم.. مريض.

– أبوها مريض، وهي ضاحكة وسعيدة، فكيف لو كان سليمًا معافى؟وأنا كنت اليوم مريضة، ولكني شعرت بتحسن، ففكرت أن حضوري سيكون مصدر سعادة لك، ولكن يبدو أنني جئت بوقت غير مناسب.

– لا، لا يذهب فكرك بعيدًا الموضوع لا يحتاج.

– معك حق، الموضوع لا يحتاج.

بسرعة جمعت عدة أغراض كنت قد تركتها في العيادة، ووضعتها داخل كيس، وخرجت.

لحق بي وسام وهو يتكلم وأنا لا أسمع ما يقول، وأمام باب السيارة أمسك بذراعي، فقلت له:من فضلك اترك ذراعي.

قال: في المرة الماضية قدت السيارة وأنت متوترة فكسرت ساقيك، والآن ماذا ستفعلين؟

– الآن سأكسر ساقك إن لم تغرب عن وجهي، في المرة الماضية كنت عاشقة بلهاء، أما الآن فأنا طبيبة، تعلمت في المرة الماضية وأثناء فترة تواجدي في المستشفى بعيدة عن أهلي وعن جامعتي الكثير، سمعت قصصًا وعرفت أخبارًا من المرضى والأطباء، ولم أضيع وقتي سدى، كتبت ديوان شعر، والأهم من هذا كله أنني تحصنت ضد حبك، منذ تلك اللحظة

وحتى الآن لا يزال في أعماقي جزء لم يغفر لك ولم يسامحك، هل تذكر قبل أيام عندما طلبت مني الزواج ورفضت؟.

– نعم، طلبت منك الزواج، وكان يجب أن توافقي، وتعرفي أنني بحاجة لك كأنثى ورفيقة، وأنني لم أعد أرغب في البقاء حرًا طليقًا وخاليًا من المسؤولية.

– لا أحد يفرض عليك الشعور بالمسؤولية، أنت رجل لا تحب الشعور بالمسؤولية، وتفضل عليها البقاء حرًا طليقًا.

وبحركة آلية خلعت خاتم الخطبة وألقيته في وجهه، وقدت سيارتي، ولكن هذه المرة على مهل رغم الغليان الذي كان في داخلي، ولكن كنت أعرف أن الحياة لن تتوقف عند وسام، وليس وسام هو الرجل الوحيد فيها، ولا أريد أن ألوم نفسي لأني عدت إليه، فقد أعطيته وأعطيت نفسي فرصة، ولكن إنها تجربة عرفت فيها الحب والمرض والخيانة والاستهتار بالآخر، وعاهدت نفسي أنها صفحة ويجب أن تمزق لا أن تُطوى.

رق الحبيب

"اليوم سيلبي فؤاد عزت دعوتي، سيجلس في بيتي، ويأكل من طعامي، ويشرب قهوتي".

هذا المونولوج الصباحي جعل ريم تشعر بنشاط وتألق وطاقة إيجابية تتسرب لروحها، مع أشعة الشمس التي تداعب الستائر الزرقاء المزدانة بزهور بيضاء صغيرة، وسألت ريم نفسها:

"ألم يكن يتوجب عليّ سؤاله عن طعامه المفضل، ربما لن يحب الطعام الذي سأقدمه له، ولكن ماذا سأطبخ له؟عندي دجاجة سأشويها في الفرن، كما أني سأقدم إلى جانبها بطاطا مهروسة، سأجهز الحساء والأرز والمقبلات، لدي عصير وفاكهة، وأيضًا عندي مكسرات، ماذا أحتاج أيضًا؟ صحنًا من السلطة الخضراء".

في الساعة الثانية والنصف، كان قد بقي نصف ساعة على الموعد، أدركت ريم أن عليها تبديل ملابسها وتصفيف شعرها، ياه..كم مضى من الزمن منذ اهتمت بجسدها احتفاء بوجود رجل معها!

أتمت وضع لمساتها الأخيرة عبر مسح نقاط من ماء الورد خلف أذنها، إنها الثالثة إلا خمس دقائق، ها هو جرس الباب يدق، ها هو فؤاد عزت.

أخذ يتأمل بيتها، بيت صغير دافئ مثلها، تحف في كل مكان، وألوان هادئة.

– بيتك جميل، وهذه التحف تدل على ذوق مرهف.

– إننا دائمًا أنا وزميلتي، نشتري كل أنواع التحف، لقد أصبحنا نملك مجموعة لا بأس بها، لذلك فنحن نفكر بأن نفتتح محلًا للتحف.

– أحقًا!

ظن أنها تمزح، لكنه استدرك جدية الأمر حين تابعت قائلة:

– نعم، أتكلم جادة، أنا وليلى مولعتان بالأنتيكات والإكسسوارات، وبما أن الصحافة لا يعول عليها فإن فكرة مشروع العمل هذه قائمة.

– ماذا تعمل صديقتك؟

– مصورة معي بنفس الجريدة.

– الفكرة تبدو جذابة، لكن أظن أن عليك التفكير بشكل أكثر طموحًا وابداعًا، كيف تنتهي مواهبك في محل لبيع التحف؟لماذا مثلًا لم يخطر في بالك العمل في إحدى الفضائيات الجديدة؟مثلًا تقديم برنامج خاص بك، أن تكوني تحت الضوء بدلًا من أن تكوني في الظل؟

أربكتها كلماته، فلم تتمكن من الرد اكتفت بابتسامة صغيرة ثم سألته:أنت هنا لمدة محددة؟

– نعم، جئت بناء على دعوة من كلية الفنون؛لأعطي عدة محاضرات وأعود بعدها إلى مسقط.

– وهل أنت مرتاح هناك؟

– نعم، في البيت وفي العمل، ولكني أفتقد لبعض الأشياء، أشتاق بيروت كثيرًا.

– عائلتك برفقتك هناك؟

– نعم، زوجتي وأولادي معي.

صمت قليلًا،ثم بادرها بالسؤال عن غياب ليلى.

ردت مع شبه ابتسامة مدركة رغبته في عدم الحديث عن حياته:

لم أكن أعرف أنها قررت السفر إلى الضيعة، ولم أرغب في تأجيل موعدنا.

– كيف هم تلاميذك؟

– رائعون، قلت لهم في أول محاضرة، أنا فؤاد عزت، الفؤاد هو القلب، سأحبكم جميعًا، عندماتسمعون كلامي، وتتجاوبون معي، وعزت من الاعتزاز بالنفس، أريدكم أن تهتموا بعملكم، وأن يكون انتمائكم للفن مصدرسعادة لكم، البعض منهم يتحدث معي كصديق، والبعض كابن، وهناك من يناقش معي الموسيقى، في الحقيقة أنا سعيد جدًا بهم، الوقت الذي أقضيه معهم ينسيني غربتي.

سألته ريم وهي تتجه نحو رف عليه مجموعة من السيديهات الموسيقية:ماذا تحب أن تسمع؟

– أم كلثوم.

فوجئت بجوابه، كانت تعتقد أنه ربما يفضل أن يسمع موسيقى كلاسيكية غربية.

– لا بأس عندي مجموعة لها، تفضل لتختار ما يروق لك.

فتحت درجًاوأخذت تخرج سي دي، فاختار أسطوانة رق الحبيب.

تحب القديم إذن؟

– نعم هذه الأغنية مفضلة عندي، بها حنين وشجن.

–نعم إنها من أجمل ما غنت الست.

في المطبخ، رافقها وهي تعد القهوة للمرة الثانية، كانا يتحدثان في حوار متصل، وكأن كل منهما أراد روي حكايته للآخر، وأن لا يغيب عنه أي تفصيل مهم.

كانت تدخن وتنظر في سقف الغرفة، وكأنها تجلس في بيتها للمرة الأولى، وهو كان يستعرض حياته، ويفكر بأنه جالس مع هذه المرأة وحدهما، هي تميل برأسها على كتفه، توشك أن تغفو في حضنه، وهو للمرة الأولى يشعر بأنه يعرفها، وأن هذه الألفة التي بينهما غريبة بالنسبة إليه، فليس من عادته أن ينسجم مع أحد هكذا، لكنه تمنى في هذه اللحظة أن يظل معها دائمًا، رغم إدراكه أن تقاطع أيامهما معًا لن يؤدي إلى تقاطع مصائرهما.

منى ياسين

حين تكون راويًا، لا يهتم أحد بمعرفة حكايتك.

يظنون أن لا حكاية لديك.

يفتحون أعينهم، ويفغرون أفواههم يطلبون منك أصل الحكايا، وحين تتورط في البوح لن تتمكن من الصمت.

لكن العقبة تكمن في أسماء الحكايات، لا لا، بل في أسماء أصحابها، هل الأسماء مهمة حقًا؟

ليس علي إلا أن أغني مع فيروز:

أسامينا شو تعبوا أهالينا للقوها..وشو افتكروا فينا

الأسامي كلام..

هذا صحيح، الأسامي مجرد كلام، ولا يهم ما هو اسمي وما هي أسماؤهم.

الزمن أيضًا غير مهم، هل من المهم مثلًا إن كانت الحكايات حصلت منذ عامين، أو منذ عشرين عامًا، أو ثلاثين، أو أربعين، أو مِئة؟

الزمان.. المكان.. الأسماء.. كلها أوهام متفرقة ومنقوصة.

كنت أضحك حين يسألونني:لم اخترت لمكاني اسم استراحة الزمن الجميل؟فأقول لهم: لأن لكل منا زمنه الجميل الذي يحب.

مي بدران

جاءت فترة الأعياد في نهاية ذاك العام، فانتهزتها فرصة لأزور أهلي، وأقضي بينهم عدة أيام، وحين أخبرتهم عن وسام صمتوا، وقالوا افعلي ما تجدينه مناسبًا، أنت تعرفين أكثر منا.

أراحني جوابهم وخفف عني عبء السؤال والجدال حول الموضوع الذي ترك في داخلي حفرة عميقة بحاجة لترميم.

عندما عدت بلغت مسؤولي الحزبيأنني تركت العمل في العيادة، ولما سألني عن السبب، قلت له إنني أريد أن أتفرغ لدراستي، وسأداوم في مستشفى بعد الظهر، ولما سألني عن وسامقلت له إنني لا أعرف عنه شيئًا.

فقال: إذن أنتما متخاصمان؟

– باستطاعتك أن تقول إننا انفصلنا.

– ولكن ماذا حصل أخبريني؟

– طريقنا ليست واحدة، أخبره عندما تراه أنني تركت العيادة له ولأطباء الأسنان.

– ولكن يجب أن أعرف ماذا حصل؟

– من وسام ربما، أنا ليس عندي ما أقوله، ولكن عندي مشاريع كثيرة يجب أن أنجزها.

* * *

بعد مرور عدة أياماتصلت بالدكتور سهيل الضاوي الذي تعالجت في مستشفاه، وطلبت منه أن أتدرب عنده فترة بعد الظهر، فرحب بي ترحيبًا حارًا.

في مكتب د.سهيل الضاوي كرر ترحيبه، وهنأني بسلامة ساقي وطريقة سيرى الطبيعية، وسألني أي الأوقات سأختارها للدوام في المستشفى، فأخبرته أنها فترة بعد الظهر، قال: حسنًا، أنا أتواجد ثلاثة أيام بعد الظهر، ستكونين معي وتحت إشرافي.

قلت: لي الشرف يا دكتور.

ابتسم وقال: أذكر أنك عندما كنت في فترة العلاج، كنت تسألين وتناقشين حول كل صغيرة وكبيرة في الطب، الأمر الذي جعلني أعتقد بأنك تلميذة مجتهدة، وتحبين المهنة التي ستزاولينها.

– منذ طفولتي وأنا أرغب بدراسة الطب، ووالدي –رحمه الله– شجعني على ذلك، ولكنه للأسف قضى قبل أن أتخرج وأصبح طبيبة.

– رحمه الله، المهم أن تلتزمي بمواعيد العمل؛لأن هذا أساس النجاح، ولكِ أن تعتبريني والدك حتى انتهاء تدريبك، وربما بعده، وأنا سأعتبرك ابنتي التي لم أنجبها.

قال ذلك واغرورقت عيناه بالدموع، لا شعوريًا أمسكت يده، ابتسم ابتسامة حزينة ثم قال: تعالي أريك القسم الذي سنعمل به.

تأملت د.سهيل، ربما لم يكن يملك من الوسامة شيئًا، يبدو في العقد الخامس، ولكنه يملك الحضور، وخفة الظل، والمكانة العلمية، والثقة بالنفس، وحب العمل والناس.

وفجأة نظر إلى يدي وقال: ولكن أين خاتم الخطوبة؟ أم أنت مثل بعض الأشخاص الذين يقولون لقد نسيته على المغسلة؟.

– كلا، لم أنسَهُ، لقد خلعته.

– خلعت الرجل أم الخاتم؟

– الاثنين.

صمت للحظات ثم قال: آسف، كان يجب أن لا أسأل.

– كلا، إنه سؤال عادي، سأسأل كل يوم هذا السؤال حتى أعتاد عليه،هذا السؤال لم يعد يقلقني، وأنا هنا عندك سأبدأ صفحة جديدة من حياتي، أرجو أن تساعدني على اجتيازها.

– أكيد، لو كنت أقدر.

– هذا ما أطمح إليه.

مرت سنة على تدريبي في مشفى د.سهيل، لست أدري كيف مرت، كأنها أيام أو ساعات، عرفت عنه خلالها كل شيء وعرف عني كل شيء، وأصبحنا بمثابة صديقين، نتناول الغداء معًا.

وأحيانًا يدعوني للعشاء في أحد المطاعم الراقية، كان مثلي يحب الشعر والموسيقى والرسم، وقال لي ذات مرة إنة تمنى يومًا لو أتيحت له دراسة الفنون إلى جانب الطب.

كان يسأل عني إذا تغيبت، وإذا سافر لزيارة أحد أبنائه، أو لأي سبب آخر يأتيني بهدية ثمينة.

عرفت منه أن زوجته ماتت قبل سنتين بالسرطان، وأنه لميفكر أن يجد لها بديلًا؛لأنه كان يكن لها حبًا كبيرًا.

سهيل الضاوي

كانت بيروت تودع المساء، حين هبطت الطائرة بي، تلفت حولي كأني أتمنى أن ألتقي شخصًا أعرفه، ولكني طلبت تاكسي وتوجهت إلى البيت، كان من عادتي عندما أعود من السفر أن أتصل فورًا بالمشفى لأعرف آخر الأخبارحول سير العمل، أسأل عن المرضى المزمنين، والجدد عن الملفات والأطباء، والوضع المالي، لكني اتصلت بمي، لست أدري أي دافع جعلني أتصل بها من بين الناس جميعًا؟

جاءني صوتها عبر الهاتف، زاهيًا موشى بالفرح، قالت: أهلًا د.سهيل، الحمد لله على السلامة، متى عدت؟

– الآن وصلت.

أكملت: كان يجب أن تخبرني لأحضر وأستقبلك في المطار.

– لم أحب أن أعذبك.

– ما في عذاب، المهم أنا مشتاقة لك، أحب أن أراك.

وددت أن أقول لها:"وأنا أيضًا"، ولكني خجلت، فسألتها:"هل تحبين أن تزوريني هنا في بيتي؟".

– أتمنى ذلك ولم لا؟

أعطيتها العنوان، وأخذت أنتظر قدومها، ومشاعر تعتريني، أشعر كما لو أنني في الثلاثين من عمري، أنا الخمسيني، ترى هل أحببت طالبة في عمر أبنائي؟وهل هي متجاوبة معي؟وكيف لي أن أعرف؟ حين دعوتهاالقضاء السهرة معي، قبلت بسهولة رغم أنيلم أرها مرة تخرج مع آخرين، فهي إما في المنزل وإما مع صديقاتها. في المرة الأولى التي دعوتها للرقص، ترددت وظلت ابتسامة على شفتيها، قالت لميسبق لي أن رقصت مع أحد، وسام لم يدعني ولا مرة للرقص.

"إذن ما المشكلة؟"سألتها.

– لا أعرف، أخاف أن أقعوأبدو أضحوكة بين الناس.

قلت لها: سأعلمك.

تذكرت في تلك اللحظة، المرة الأولى التي رأيتها بها، كانت في وضع سيىء للغاية، فساقاها الاثنتان مصابتان بكسور، ومغمى عليها، عرفت فيما بعد أنها كانت تقود سيارتها، وهي في حالة غضب شديد، لكنها لم تكن سكرانة.

طلب مني الطبيب الذي أشرف على وضعها أن أراها، راقبت حالتها ثم قلت له: سأكمل علاجها.

عرفت فيما بعد أنها طالبة في كلية الطب، وأنها تكتب الشعر، وأنها خلال تواجدها في المستشفى، كانت تسأل في الطب عن كل صغيرة

وكبيرة، كأن بها شغف بهذا التخصص الذي اختارته، أما في المساء قيل لي إنها كانت تقضي الوقت في القراءة وكتابة الشعر.

عندما تماثلت للشفاء، وهي تغادر المستشفى، دقت على باب مكتبي بأصابع بيضاء ناعمة وقالت جئت أشكرك، هذا المستشفى أصبح مثل بيت لي، لذا سأعود لها ولكن هذه المرة كطبيبة تحت التمرين.

"أهلًاوسهلًا"قلت لها.

وبعد مغادرتها بشهر تقريبًا، اتصلت بي وطلبت لقائي، لكي تتدرب عندنا في المستشفى، رحبت بها، وتحدثت معها عن أوقات الدوام.

عرفت بعد ذلك أن أخاها الوحيد قضى بحادث طائرة، وأن والدها مات حزنًا عليه بالسكتة القلبية، وأن أمها أصيبت بشلل.

فكرت كم من الأحزان مرت على هذة الشابة، ولكن كنت أعرف أنها مخطوبة، فقلت هذا أمريخفف من حزنها وغربتها، لكن لفت نظري خلو يدها من خاتم الخطوبة، سألتها أين خاتم الخطوبة، أم أنت من الذين يقولون نسيته على المغسلة؟

قالت: كلا لم أنسه على المغسلة، لقد خلعته.

إذن هي وحيدة من جديد، ترى إلى متى تظل صامدة؟

إنها رغم كل النوائب تسعى لإكمال دراستها، والبحث عن مكان لها تحت ضوء الشمس من خلال التدريب لثلاثة أيام في الأسبوع، كانت مثال الطالبة المتفتحة الذهن المركزة على العلوم التي تحصل عليها، مواعيد حضورها ثابتة ومنتظمة.

ولكن هل تراني منحتها اهتمامًا خاصًا؟لم يكن من عادتي أن أهتم بأي من تلميذاتي؛ منذ موت زوجتيازدادت وحدتي، واختصرت علاقتي على عدد محدد من أصدقائي الأطباء وطلابي، وأذكر أنني كنت عائدًا ذات مرة من السفر ففاجأني اتصالها، قالت إنها تتصل لتطمئن علي وإن كنت بحاجة لشيء،سألتني:"هل أنت جائع؟" ولمّا لم أرد قالت""أنا أدعوك للعشاء".

قلت لها على الفور:"من يجب أن يدعو من؟"

أجابت:"أنت دعوتني لأكثر من مرة، فدعني أبادر فأدعوك".

استسلمت لامرأة تدعوني، وتهتم بي فقلت لها وأنا أضحك:"على شرط، تحضرين لي باقة ورد إلى جانب العشاء".

صمتت ثم قالت:"في علم الإتيكيت، تقديم الورد من اختصاص الرجل، ولكن من أجلك دكتور نخرق القاعدة".

"وتتابعين دروسًا في الإتيكيت أيضًا؟" سألتها.

– ولِمَ لا؟ أين المشكلة؟

–بالعكس، يجب على الإنسان أن يلم بكل المعارف.

التقينا يومها أمام المطعم المتفق عليه، ودعوتها للرقص فابتسمت وقالت: "لا أعرف، في بلدتنا لا توجد هذه العادات، وعندما جئت إلى بيروت وخلال خطبتي لوسام، لم يدعني مرة، أنا آسفة".

فعلقت على كلامها:"لكن الرقص من ضمن الإتيكيت، الذي تحدثت عنه قبل قليل".

– نعم معك حق، أعدك بأني سأدرسه.

في نهاية السهرة، افترقنا أمام مدخل بيتها؛لأني أحببت أن أطمئن إلى سلامتها، قدمت لها الهدية التي أحضرتها لها، فوجئت وسرت سرورًا بالغًا، واقتربت مني وقبلتني في خدي، كما لو أنها تقبلني للمرة المِئة وقالت:"شكرًا، أتعرف أجمل ما في الهدية، أن تأتي في غير موعد وبغير مناسبة".

ثم تنهدت وقالت:"أنت يا دكتور سهيل بحد ذاتك هدية قدمها القدر لي، لا أعرف كيف أشكرك، دائمًا تفاجئني بأشياء تدخل السرور إلى نفسي".

– هل تدخل لنكمل السهرة؟

– كلا، في مرة قادمة، الوقت تأخر.

تركتها وأنا أفكر هل تدفقت أنوثتها في ظل رجولتي، واستيقظت رجولتي في حضرة أنوثتها؟

أفكر بهذه الأنثى، تراني تعلقت بها.

* * *

واليوم هأنذا أنتظرها، تلفت حولي، فتحت الشبابيك، وتأكدت أن البيت نظيف، ولمحتها من خلف النافذة، فسارعت أفتح لها الباب، فاقتربت مني وغمرتني بذراعيها، وقبلتني في وجنتي، لم أبادلها العناق ولكني كنت سعيدًا جدًا.

استأذنت منها لحظات صنعت القهوة، سكبت فنجانين، قدمت لها فنجانًا ثم فتحت الحقيبة التي كانت لا تزال في الصالة، وأخرجت منها الهدية التي انتقيتها لها، قلت وأنا أناولها الكيس :"هذا لك".

أمسكت به، ثم قالت:"أحقًا؟ أستطيع أن أفتحه أم تفتحه أنت؟"

– افتحيه مي، افتحيه.

بيد مرتعشة ونبضات سعيدة فتحت الكيس وأخرجت منة الهدية، كانت عبارة عن ثوب جميل بألوان زاهية.

– أحقًا هذا لي، كيف عرفت ذوقي؟

اقتربت وقبلتني للمرة الثانية، ورغم أن شفتيها بالكاد مستا وجهي، لكن رائحتها وعبق أنفاسها أيقظا الرجل الكامن في أعماقي، الذي كاد أن يموت.

– ولكن يا دكتور إنها المرة الثانية التي تحضر لي بها هدية، كيف أشكرك، قل لي متى عيد ميلادك؟

– وهل يجب أن تردي لي الهدية؟ ألا يكفي حضورك ولهفتك عليّ؟، لم أرَ واحد من أولادي اهتم بسفري أو عودتي، فهم بالصدفة يسألون عني أو يهتمون لأمري، وبين فترة وأخرى يرسلون لي بعض الهدايا الصغيرة.

لا تغضب يا دكتور اعتبرني ابنتك، صديقتك، أختك الصغرى، أنا سأسأل عنك حتى الرمق الأخير من حياتي.

– أحقًا يا مي ؟

– طبعًا يا دكتور، لي الشرف أن أفعل ذلك.

أخذت أناملها وربت عليها.

وعلى الباب وهي تودعني، عادت فطبعت قبلة على جبيني، وقالت وهي تشير للكيس:"هذه الهدية تعني لي الكثير، لم تقل لي متى عيد ميلادك؟".

– في ليلة رأس السنة.

– رائع، إذن الدنيا كلها تحتفل بعيد ميلادك، وأنا أدعوك للعشاء منذ الآن، ليس هناك من عذر للرفض، حقًا لا يزال الوقت مبكرًا، فنحن في شهر سبتمبر، ولكن أنا أدعوك ولا أقبل أن ترفض أو تؤجل، أو تقول لي عندي انشغال مع أصدقاء آخرين، ستكون في هذة الليلة جاهزًا للسهرة.

وقفت خلف النافذة أتأملها وهي تسير نحو سيارتها، وأسأل نفسي تراني سأحلم يومًا أن تصبح زوجتي؟ ولم لا؟ القدر يفاجئنا في الأوقات غير المتوقعة.

مي بدران

أصبح وجود د.سهيل في حياتي دعامة وركيزة لي، فإن غاب أفتقده وأشعر بشوق له؛ حتى إنه ذات مرة كان عائدًا من السفر فاتصل ليخبرني بعودته، سررت جدًا، كانت التاسعة مساء، سألته هل تمانع أن أحضر لرؤيتك الآن؟

قال: أهلًا وسهلًا.

وما إن فتح الباب لي، حتى ارتميت بين ذراعيه وقبلته، وعندما عدت إلى البيت، أحمل هديته الجميلة، أخذت أسأل نفسي:تراني وقعت بغرامه؟ أم أن حضوره في حياتي يعوضني عن الأب الراحل، أم عن الحبيب الذي تخلى عني وكاد أن يفقدني صوابي؟ أم ماذا؟

كانت هذه الأفكار تختمر في رأسي، ربت د.سهيل على كتفيوقال لي: عندي مؤتمر طبي في إسبانيا، هل ترافقيني؟

فوجئت بكلامه فسألته: ولكن أرافقك بأية صفة؟

– ترافقيني كطبيبة تعمل معي في المستشفى، كابنة، كزوجة؟

فقلت على الفور: أنا موافقة.

- على ماذا؟

- أرافقك بالصفة التي تختارها لي.

- إذن أختار الأخيرة.

وألقيت بنفسي بين ذراعيه ومسحت رأسي بشعر صدره ورائحة جلده.

قال:أنت تبادلينني نفس المشاعر؟

- نعم..جدًا.

- منذ اللحظة التي بدأت العمل معك رأيتك تمتصين الحياة وتطلبين العلم بشغف، حتى تجربتك الماضية، لم تكسرك بل زادتك صلابة وإيمانًا، ومواظبتك على متابعة كل صغيرة وكبيرة في اختصاصك، هو البحث عن إيجاد هوية لك، ونضال ضد القهر والظلم.

وجدت فيك الابنة التي بحثت عنها مطولًا لكي أعلمها الطب، فأولادي الثلاثة لم يفكر أحدهم بأن يخلد اسمي بدراسة الطب، ويستلم من بعدي هذا المستشفى، صحيح أن الكثير من الناس يعتقدون بأن هذا المستشفى ملك لي، ولكن الحقيقة أنني المشرف الأول عليه، ولي نسبة من الأرباح.

ولكن هذه التفاصيل سنتحدث عنها لاحقًا، أخبريني كيف تريدين أن يتم زواجنا؟

– كما تقترح لن نختلف.

– الحقيقة إنني لم أكن لأضع الزواج في برنامجي، ولكن ظهورك في حياتي وأنت حرة طليقة، مقبلة على حياة جديدة كما قلت، في وقت كنت أفتقد شريكة عمري، كلانا وجد في الآخر ما يبحث عنه، وما هو بحاجة له، ولكن كنت أتوقع عندما طلبتك للزواج بهذه الطريقة التي تعمدت أن تكون تلقائية تمامًا، أن تصابي بالدهشة، أن تطلبي مهلة للتفكير، أن تخرجي من المستشفىولا تردي على الهاتف، وكنت قد جهزت نفسي لأسوأ الاحتمالات، ولكن فوجئت بك، وكأنك كنت في انتظارها.

– نعم كانت مشاعرنا واحدة، وأنت رأيت كيف استقبلتك بعد عدة أيام من سفرك، كيف اندفعت نحوك واحتضنتك، كيف رميت نفسي في حضنك، لم أفكر ولم أنتبه لعادات أو تقاليد، وكيف ستفسر تصرفاتي ومن أي منظار ستحكم عليها؟

– قلت في نفسي، لعلها مشاعر فتاة تفتقد لحنان الأب، ولكن في سفرتك الثانية كان الاندفاع أقوى، فكرت لعلها أحاسيس طالبة تكن لأستاذها مشاعر شغف كبير، لطبيب حاز أعلى الدرجات العلمية، وهذه المشاعر تليق به ويستحقها.

– ولكن كانت أنوثتي تتحرك نحوك وكنت ترعاها، على مهل وبهدوء، لم تكن تطلب، كنت تعطي وكنت تنتظر بثبات وثقة نتيجة عطائك، كنت تدعوني لسهرات موسيقية وحفلات راقية، وحين تدعوني للرقص أهز رأسي أسفًا وأنا أبتسم وفي غاية الخجل، ولكنك تصر على تعليمي، وتضحك وأنت تسألني أيهما أصعب الطب أم الرقص؟ولكن، حين تشعر بارتباكي تشجعني قائلًا:د.مي وبعدين معك؟

وأدخل معك إلى حلبة الرقص تمسك خصري بتؤدة وهدوء، وتتعمد أن تبقى بعيدًا مسافة حتى لا أشعر بخجل أو حرج، وتبدأ بإعطائي التعليمات، ثم تقول:"ولكن هنا أنا لا أضع النتيجة، بل تأخذينها في الحال لوحدك بحدسك وإحساسك" هل تذكر؟

– وهل نسيت؟

– كم كنت فخورة حين عرفتني على أصدقائك الأطباء وزوجاتهم، وكنت تقدمني لهم بكل اعتزاز:"د.مي تلميذتي النجيبة المتفوقة"لم تكن تخجل كعادة بعض الرجال حينما يرافقون صبايا في عمر أولادهم.

– إذن نحن متفقان .. كم تريدين مهرك؟

– تسألني هذا السؤال في الوقت الذي تقدم لي حياتك وتمنحني شرف الاقتران باسمك!

– أسلمك عمري وفوقه العيادة والبيت، وأضع في حسابك مبلغًا في البنك، أما أولادي فلقد تركت لكل منهم نصيبه من ثروتي المتواضعة، فإذا وافتني المنية فجأة..

– لماذا تتحدث عن الموت الآن وفي موقف كهذا؟

– مي نحن أطباء والموت جزء من عملنا، وأنت أدرى الناس بالموت. لقد اكتويت بناره بينما براعم صباك كانت لم تتفتح بعد، ولولا الموت لما فكرت بقبول وسام أو غيره خطيبًا لك في تلك الفترة.

– لا أريد أن أذكر ذلك الإنسان الآن، واليوم بالذات.

– بالعكس أنا أدين لهذا الإنسان بسعادتي، فلولاه ما كنا التقينا.

نظرت إلى د.سهيل وفكرت بكلماته، وتمنيت في هذه اللحظة لو كان أخي محسن على قيد الحياة، أو لو كان أبي حيًا يرزق، ويرى ابنته التي ستتخرج من كلية الطب هذا العام، وكيف ستتزوج من طبيب جراح وله عيادة وسمعته عطرة مثل المسك، تمنيت لو كان لي إخوة آخرين يقفون معي ويشدون أزري.

وأعادني إلى الواقع صوت د.سهيل مي أين أنت؟

– أنا معك.

– أخبريني عن تصورك لحفلة زفافنا.

– الحفلة لن نختلف بشأنها، ولكن هناك ما هو أهم.

– ما هو؟

– أهلي، ألن تذهب لتخطبني منهم؟

صمت وبدا عليه القلق والارتباك، ثم قال:"الحقيقة أنني أجد هذا الموقف صعبًا، ليس في البيت رجل أتحدث إليه، وثانيًا أخشى من النظرات والتعليقات، أرى أن ترتبي الموضوع معهم، وليس عندي مانع أن أخطبك، ولأن يحضروا جميعًا حفلة زفافنا في بيروت".

– اليوم سأكلم أمي وخالتي حسنى وزوج خالتي، وأختي علياء وأولادها، هؤلاء هم عائلتي، وسنتفق أن نذهب لضيعتنا لتتعرف إليهم، ولن يكون هناك أي عائق، فعائلتي أبسط مما تتخيل، وهم لا يريدون سوى سعادتي، وأنت فخر لنا جميعا د.سهيل.

– عدنا لكلمة دكتور، ما رأيك أن أناديك أنا أيضًاد.مي؟

ضحكت وقلت: وأنا موافقة، سأبقى أناديك د.سهيل حتى أنجب منك ثلاثة أطفال.

– أنا موافق على الشق الأخير من الاقتراح.

كلمت أمي وخالتي، وكانتا قد لاحظتا مدى إعجابي بد.سهيلومدى محبتي له، ولكنهما فوجئتا بموضوع الزواج، سألتني أمي بعد فترة من الصمت: مي هل فكرت مليًا بفارق العمر بينكما؟ هل تتزوجين من د.سهيل لتنتقمي من وسام أم وسيلة لنسيانه؟

أجبتها: هذه المرة لم أفكر بقلبي بل بعقلي، هذه المرة يحركني عقلي ثم إنني أحببت د.سهيل وأحترمه جدًا، وأعتبره المثل الأعلى لي في الطب، وهو في زواجنا لن يبخل عليّ بشيء.

– وأولاده ماذا بشأنهم؟

أولاده الثلاثة مسافرون وعلاقتهم بوالدهم شبه رسمية وجافة، وهو قد اتصل بهم وأخبرهم، فلم يعترضوا ولكنهم لم يكونوا مسرورين.

– إذن هناك مشكلة!

– كلا؛ لأنهم مسافرون في الخارج، ويأتون بشكل زيارة قصيرة ويعودون، حتى أحفاده يحبهم ولكنه يشعر بأنهم غرباء عنه، عندما يتحدث معهم يردون باللغة الأجنبية فيغضب ويتوتر، ويقول لأولاده ألا تجدون وقتًا تعلمون أولادكم اللغة الأم؟

ولكني حكيت لدكتور سهيل عن أولاد أخي محسن وأمهم التي لا تفكر بحضورهم لزيارتنا، ولا تشجعهم على التواصل معنا، وأنني إن لم أسأل عنهم فهم لا يذكرون بأن لهم أهلًا في لبنان.

يوم السبت توجهنا أنا ود.سهيل إلى ضيعتنا، استقبلنا زوج خالتي حسنى وأولاده أحسن استقبال، وبعد العشاء اقترح زوج خالتي علينا أن نعقد قراننا هنا في الضيعة، وأن نقيم حفلًا صغيرًا وبعد ذلك لنا كل الحرية في تدبير أمورنا كما نرتئيها، قال ذلك فلم يعترض أحد.

وبعد عقد القران الذي تم بسهولة ويسر، لم ينغصه سوى نظرات أمي لي ونظراتي لها، وكأن بيننا شفرة سرية، هي تتساءل عن زوج وابن، وأنا أشاركها النداء بفقدي لأروع رجلين في حياتي، ولكني واثقة بأن لقائي مع سهيل هو تعويض لي ومكافأة انتظرتها طويلًا وتحققت.

أقيمت لنا حفلة صغيرة مخصصة للمناسبات، قد كانت مجهزة ومرتبة وأنيقة. كنت أتأمل زوج المستقبل فأجده هادئًا مفعمًا بالاستقرار، ويكاد أن يكون أسعد الناس.

قدمت لي أمي هدية الزواج، عقدًا وسوارًا وخاتمًا من الذهب الخالص المطعم بفيروز، وخمس ليرات ذهبية، وأهدتني خالتي حسنى خاتمًا ذهبيًا ثمينًا، أما زوجها فلقد أهداني ساعة ذهبية، أما هدية أختي علياء فكانت عبارة عن سوار به عشر ليرات ذهبية.

عند وداعنا وبينما كان د.سهيل ينحني ليسلم على أمي ويودعها، فإذا بها تفاجئنا بإهدائه ساعة جميلة وثمينة، خجل د.سهيل من هذه المبادرة، وقال لي في طريق عودتنا: إنني خجلت أمام الهدية التي قدمتها لي

أمك، وخجلت أكثر بما قالته لي:"أنتَ غالٍ عليّ لأن مي تحبك واختارتك زوجًا لها".

أحب سهيل أهلي وشعر وهو بينهم كأنه واحد منهم، وهم بدورهم غمروه بالمحبة، ذلك أنهم شعروا بمدى الحب والتقدير الذي يكنه لي. في بيروت عندما وصلنا فوجئنا بأن زملاء د.سهيل قد رتبوا لنا حفلًا صغيرًا، يشبه الحفل الذي أقامه أهلي، على أن الاختلاف في التفاصيل.

قدم لي زوجي هدية الزواج عقدًا من الألماس الحر، وسيارة جديدة.

وطلب مني أن أستعملها منذ الغد، وأن أتصرف بتلك كأن أرسلها إلى أهلي في الضيعة مثلًا.

* * *

مرت سنة على زواجي مند.سهيل الضاوي، كانت وستظل أفضل سنة في عمري، فأنا عندما طلبت مند.سهيل الضاوي أن أتدرب في مشفاه، لم أعرف إذا كان سيوافق أو يرفض، لكنه أغدق عليّ الكثير من علمه ومن نبله وعواطفه أيضًا. وقد أخبرني أنه عندما طلبني للزواج – بطريقة مبتكرة وحديثة وبدون مقدمات– تردد كثيرًا، وأنه اعتقد بأن ردة فعلي ستكون أن أبتعد عن المشفى لفترة، أن أطلب مهلة للتفكير، أن أرتبك أو أفاجأ، ولكنه لم يكن يتوقع أن أوافق في التو واللحظة، وكمن وجد كنزًا فأخذه وخبأه في مكان أمين.

قال لي يومها: لم أتوقع أن تكوني عملية وعاشقة لهذه الدرجة.

سألته على الفور: وأنت، ألم تكن عاشقًا؟

قال: بلى، وكنت خائفًاإن لم أسارع بالاستحواذ على حبيبتي، أن أنظر حولي فأجدها قد تبخرت، كما تبخرت سعادتي فجأة مع المرحومةزوجتي، هل تغارين منها؟

– بالعكس أنا أدين لها بالفضل، فلو أنها بقيت على قيد الحياة فإنك لم تكن لتفكر بي أو بغيري، لقد كنت زوجًا مثاليًا، وحتمًا السيدة زوجتك كانت امرأة مميزة.

– نعم، هي كانت كذلك رحمها الله، والله عوضني بك، فأنت – وإن اختلفت التفاصيل بينكما– إلا أنه تجمعكما قواسم مشتركة.

– نعم، والقاسم المشترك الأكبر هو حبنا لك.

ابتسم وقال: ولكن الحي أبقى من الميت.

في هذه السنة كاند.سهيل يعاملني كابنة مرة، كزوجة طورًا، كطبيبة في معظم الأحيان، أما الحب فندخره لسهرتنا معًا، يعزف لي على وتره العزف الجميل، ويعيش معي التناغم الراقي، ولم يكن بحاجة لكلمات ليترجم حبه لي. كان يعتبرني أعظم جائزة حصل عليها في هذه الغربة التي كان يتخبط بها، فهو قد فقد زوجته، وأولاده مشغولون عنه ببيوتهم وأولادهم، وبالكاد

يتذكرونه بهاتف أو هدية صغيرة، وهو غارق بين المستشفى والعيادة، له قلة من الأصدقاء، عندما ماتت زوجته كان يخجل أن يزورهم وحيدًا. ولكن بعد زواجنا أخذنا نعقد اللقاءات والندوات الشعرية والأدبية في بيتنا، وكان يطلب مني أن أقرأ لهم من شعري، وكذلك في السهرة وقبل النوم، كان يحب أن أقرأ له قصيدة أو اثنتين. وهو بدوره كان يعزف على بيانو قديم، كان قد تركه والده، ولكنه لم يكن يتذكر العزف إلا عندما أطلب منه ذلك.

ذات مرة حضر لزيارتنا ابنه الأكبر، وفي خلوة بينهما، وبينما كنت سأدخل لأقدم القهوة، وكان الباب مواربًا سمعته يقول لوالده: ولكنها صغيرة جدًا يا والدي.

رد زوجي: بالعمر نعم، ولكن بنضجها وتفكيرها واتزانها تكاد تكون بعمري.

وأذكر أنني سمعت ضحكة استهزاء عالية، وتعليقًا لا أذكره ولكن أذكر معناه.

وفي ذكرى زواجنا الأولى اقترحت أن نقيم حفلة صغيرة عندنا في الضيعة، على أن ننام في الضيعة ونعود في اليوم الثاني لنقيم حفلًا آخر في بيروت بين أصدقائنا الحميميين.

بعد نهاية السهرة في الحفلة التي أقمناها في بيروت، قال لي زوجي:بعد شهر يحل موعد تخرجك، ولكن بماذا ستتخصصين لم أسألك حتى الآن؟

نظرت إليه وقلت: خمن!.

قال: الحقيقة لم أفكر بهذا الأمر، ولكني أعتقد أنك تفكرين بأمراض النساء.

– كلا، لم تحزر يا زوجي الحبيب، الاختصاص الذي أفكر به ربما لم يخطر على بالك.

"ما هو؟" سألني.

– التجميل.

– التجميل! ولكن لماذا؟

– وهل نسيت أني شاعرة؟ أبحث عن الجمال حتى في الطب.

– كما تشائين لم لا، أرسلك إلى لندن للتخصص هناك.لقد عرض عليّ أحد أصدقائي الأطباء منذ فترة أن أشاركه في مستشفى سيفتحه هناك.

– حقًا هذا خبر جميل، إذن سنبقى معًا؛لأنني لن أقبل حتى الدراسة مهما كانت أهميتها أن تبعدني عنك.

– ومن قال لك أنني أقبل أن تبتعدي عني لأي سبب؟أنت روحي، إنني أرى الحياة من خلالك، فأنا أنتمي لجمهورية مي، ويا لها من جمهورية من الحب والفن والجمال، شيء واحد فقط يستطيع أن يفرقنا، ليس لدينا عليه قدرة.

– سهيل ما أروعك وأنت في هذا العمر وتتحدث بلسان شاب في الثلاثين!

– من حسن حظنا أن العواطف والأحاسيس ليس لها عمر، وأنت قد أزلت عني سنوات، وجعلتني أكبر منك قليلًا، بل في بعض الأحيان أشعر أنك أكبر مني.هل تذكرين أول سفرة لي بعد زواجنا؟لم أجد داعيا أن تقطعي دراستك وترافقيني، فمدتها ثلاثة أيام، ثم إنني سأترك العيادة بأمانتك، وستكون مفتوحة كي يتعود المرضى عليك، وإن لم أكن موجودًا فأنفاسك ستظللها، أذكر أنك ملأت الحقيبة بالكنزات الصوفية والمعاطف، ولم تتركي نصيحة إلا وأسديتها لي كما لو أنك ستي الختيارة، حتى تخيلت أنني مقدم على رحلة فضائية وليس مؤتمرًا طبيًا، نعم الموت هو الشيء الوحيد الذي من الممكن أن يفرق بيننا.

– عدنا لحديث الموت.

– مي كما قلت لك في أول لقاء بيننا، الموت هو الحقيقة الوحيدة التي لا نستطيع إنكارها. ومنذ أول يوم لزواجنا، وأنا أعتبر أن كل لحظة أعيشها معك، هي عمر كامل، هي سعادة، هي فرح وعطاء، هي هدوء بال، ماذا أريد أكثر؟لقد صالحتني الدنيا بك.

– وأنت ياد.سهيل، يا زوجي وحبيبي، لقد كنت لي الأب والأخ والصديق العاشق، كنت المعلم والأستاذ، فكيف أكافئك؟إن عمري كله لو قضيته أشكرك فلن يكفي.

– تشكرينني!أنت الشابة المتألقة، ابنة الحسب والنسب، الراقية بتفكيرها وأخلاقها وتهذيبها، لقد وضعت عمرك وشبابك بين يدي، أخبريني كيف أكافئك أنا؟

غمرني زوجي بين ذراعيه، ثم رفعني عن الأرض، وطبع قبلة كبيرة على شفتي وقال لي دعي أحدنا ينام بين ذراعي الآخر نومًا رغدًا هانئًا. هذا هو أعظم الشكر وأجمله.

* * *

أرسل زوجي كل أوراقي الثبوتية وشهادتي إلى صديقه الذي سيعمل معهد.برهان الأسدي، وأخذنا نستعد للسفر، العيادة هنا سنسلمها لطبيب شاب من تلاميذ زوجي، أما المستشفى فلقد سلم مهامه لصاحب المشفى،

أما البيت فسيبقى على حاله، تأتي خالتي حسنى تتفقده بين وقت وآخر؛ لأننا سنحضر في العطلة الصيفية لنبقى به.

كل القضايا أصبحت قيد التنفيذ، حتى تذاكر الطائرة حجزناها، واشترينا ما يلزمنا، وفي صباح الغد سنتوجه إلى المطار بإذن الله لنغادر في طائرة الساعة العاشرة صباحًا إلى لندن.

كانت الساعة قد دقت دقاتها العشرة حين رن الهاتف، رفع زوجي السماعة وقال خير، وأخذ يتكلم مع المتحدث، لم أكن قريبة لأسمع ما يدور بينهما من حوار، ولكنه ناداني وهو يلبس معطفه،وقال:مريضي هذا لا أستطيع أن أتركه يجب أن أراه.

– ولكننا مسافرون غدًا، ما أنت فاعل له؟اتصل بأحدألاطباء ودعة يكمل علاجة معة ألاطباء ودعة يكمل علاجة معة الأطباء ودعه يكمل علاجه معه.

– كلا، أنا ما زلت هنا، ستكون المعاينة الأخيرة، وسأوصي به أحد الأطباء ليكمل علاجه معه.

ربت على وجهي وقبلني بسرعة وقال:"لن أتأخر". حمل حقيبته الطبية ومضى وسط دهشتي واعتراضي.

مضت ساعة وأنا منهمكة بترتيب أغراضي، وما أحتاجه وما أستغني عنه، ولكني قلقت، هل زيارة مريض تحتاج لكل هذا الوقت؟ لماذا؟ هل

وضعه سيء جدًا، وقد اضطر إلى نقله إلى المستشفى؟ ولكن لماذا لم يتصل ليطمئنني؟ هل الهاتف في عيادته معطل؟ بدأت أقلق عليه، فكرت أن أتصل به ولكن فضلت الانتظار.

لحظات ورن جرس الهاتف، أسرعت أرفع السماعة وأنا على ثقة بأنني سأسمع صوت سهيل، وسأطمئن عليه.لكن صوتًا غريبًا اخترق أذني قائلاً هل حضرتك زوجة د.سهيل؟

– نعم أنا هي.

– آسفين أن نخبركبأند.سهيل في طريق عودته إلى المنزل ارتطمت سيارته بعمود كهرباء، وهو الآن في المستشفى.

كيف قدت سيارتي، كيف وصلت إلى المستشفى، كيف تسمرت أمام الغرفة التي يرقد فيها زوجي، ولما لم يسمحوا لي بالدخولطرقت الباب برجلي وصرخت بأعلى صوتي:"أنا طبيبة.. أنا زوجته، افتحوا لي أريد أن أراه، يجب أن تكون هناك وسيلة لإنقاذه! لن أدع الموت يأخذه مني أبدًا، أقدم حياتي له، أي عضو من أعضائي، دمي، كليتي.

ولكن لن أدعه يموت، لن أدع القدر يلعب لعبته القذرة معي مرة أخيرة، ألا يكفي موت أبي وأخي وعجز أمي، ألا يكفي هجرة أولاد أخي وحرماني منهم، وخيانة وسام كيف أنساها، كل هذا تناسيته حين ظهر هذا الطبيب في حياتي، لم يكن طبيبًا فحسب، كان رجلًا نبيلًا، وزوجًا حنونًا،

كان حبيبًا رائعًا، لا أبدًا، لن أدعه يموت. يجب أن يبقى على قيد الحياة لأنني بدونه سأعود إلى الغربة واليتم، وصحراء ضجر تمتد أمامي ليس لها أول من آخر".

* * *

أشعر بثقل في جسمي، وأكاد لا أستطيع أن أنهض من الفراش، ضوء خفيف يتسلل من النافذة، أين أنا؟ أكاد ألمح وجه خالتي حسنى وزوجها، ماذا يفعلان هنا؟ أضغط على جسمي لأتمكن من النهوض قليلًا، أفرك عيني، وأنظر مليًا، أتأمل المنظر حولي، أنا في مشفى د.سهيل، ولكن أين هو د.سهيل؟

يالتعاستي، الآن تذكرت، أنهض بقوة، وأسأل خالتي أين د.سهيل، ماذا فعلوا به؟

– لا شيء يا حبيبتي، إنه لا يزال في غرفة العناية الفائقة.

أستجمع نفسي وأنهض، وأركض باتجاه تلك الغرفة، ما إن أصل حتى أضرب على الباب بقدمي، يفتح أحد الأطباء ويشير لي برأسه علامة أنه لا يسمح لي بالدخول، أدفعه بيدي وأقول له:"لست أطلب إذنًا منك، أنا هنا من يحدد"يكاد أن يدفعني بيده، ولكني أتمكن من الدخول، لأجد ثلاثة أطباء آخرين، ود.سهيل مسجى كما رأيته عندما جاءني هاتف الشؤم ذاك،

أقترب منه، أتأمله، أمسد على وجهه، وأصرخ بهم:"ماذا ألم تتمكنوا من علاجه؟ أم أنكم عالجتموه على طريقتكم؟".

أحد الأطباء يتوجه بحديثه لي مباشرة:د.مي من فضلك، لا فائدة من وجودك هنا، دعينا نكمل عملنا.

– عملكم! وما هو عملكم؟ أن تقضوا على ما تبقى لي من أمل في إنقاذه؟هل أرسلتم لأولاده؟

– نعم، اثنان من أولاده حضرا وأشرفا على وضعه، والآخر سيحضر اليوم، ولكن لا ضرورة لوجودك هنا، نحن سنطلعك على كل جديد.

– وهل أنتظركم لتطلعوني؟من منكم يحب أو يهتم بالدكتور سهيل مثلي؟أنا الوحيدة التي ليست لها من حياة إن قضى د.سهيل، يجب ساعتها أن أموت معه أو بعده.

– سنرسله للعلاج في الخارج، تذاكرنا جاهزة وصديقه بانتظارنا، أبيع كل ما أملك وأعالجه.

– لا فائدة العلاج هنا أو في الخارج، حالته لا تسمح بنقله، والنزيف الداخلي لا يعطيه فرصة كبيرة للشفاء.

– كلا، لا تنطق بهذه الكلمات، لست أنت الذي يحدد، ربما العناية الإلهية تشفق عليّ وتتذكرني في آخر لحظة.

في أثناء ذلك كان ثمة من يدق على الباب، فتح أحد الأطباء ثم بادرني قائلًا: "إنهم أولاد د.سهيل إذا أحببت أن تجتمعي بهم".

خرجت إليهم، بالكاد تبادلنا التحيات، كنت قد تعرفت فقط إلى ابنه الأكبر، أما الاثنان الآخران فشاء حظي التعس أن أتعرف إليهما، ونحن في هذه المحنة الأليمة، وجوه عابسة مكفهرة، كيف لا وهم مثلي سيخسرون أبا حنونًا ومميزًا، لم أتوقع أي شيء آخر، ولكن لن أضيع الوقت، قلت لهم: "أنا أقترح أن نسافر به إلى لندن أو أميريكا، الآن أنا مستعدة أن أبيع كل ما أملك ونصحبه للعلاج، ما رأيكم؟"

ينظرون إليّ جميعهم، وينظر أحدهم إلى الآخر، ثم تحدث الأصغر قائلًا : "ما الذي جعل د.سهيل يخرج من بيته في ساعة متأخرة ليتوجه إلى علاج مريض وهو يجهز نفسه للسفر، ألست أنت؟"

– أنا منعته من الذهاب، ولكنه أصر.

ابتسم ابتسامة استهزاء وقال: أنت منعته، ربما شرب كأسًا أو كأسين، وقاد سيارته وبعدها حصل ما حصل.

– د.سهيل لا يشرب أصلًا إلا في مناسبات معينة كأسًا واحدة فقط، وهو عندما خرج من البي تكان في كامل صحته وعافيته، وبناء على واجب إنساني، أبى أن يتخلى عنه حتى قبيل سفره بساعات، وقد حاولت أن أعرقل خروجه فلم أفلح.

– للأسف لست مقتنعًا بكلامك.

أكاد لا أصدق ما أسمع، بودي أن أضرب رأسي بالحائط، ولكني أتركهم وأعود لخالتي حسنى، أحكي لها ما حصل، تتأملني خالتي حسنى وتقول:"حبيبتي مي لا تهتمي، فهذا تصرف طبيعي يصدر عنهم، هم مقهورون، والدهم تزوج بغير رضاهم، شابة في عمر أصغرهم ربما، لذلكلا أحد يستبعد أن يكيلوا التهم لك، ولكن أنت تعرفين والدنيا كلها تعرف عمق محبتك للدكتور سهيل وإخلاصك له، ولست بالفتاة الفقيرة التي تزوجت مند.سهيل عن طمع، أنت والحمدلله عندك ما يكفيك، كل ما أتمناه أن يعجل الله بشفائه أو بأخذ أمانته".

– خالتي لا تقولي ذلك، فليبقَ هكذا مسجى، المهم أن أراه، أن أشتم رائحته، أنا مستعدة أن أترك كل شيء لأبقى إلى جانبه أخدمه ولن أمل من ذلك مدى الحياة، وإن فقدت الأمل من شفائه أتعرفين ماذا سأفعل؟ سأسأل وأبحث أين وكيف يتم التحنيط. نعم، سأطلب من المختصين بهذا العمل، أن يحنطوا د.سهيل، نعم ليبقى أمامي مدى الحياة".

نظرت إلي خالتي، ربما فكرت أنني أصبت بلوثة أفقدتني عقلي؛لأنها أخذت تتمتم: "لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه".

أمسكتها من كتفيها وقلت لها:"خالتي حسنى، أنا بخير لا تقلقي بشأني، ولكن إن أنا فقدت د.سهيل لن أكون بخير أبد حياتي، إن حياتي بدونه لن تكون أكبر من ذرة رمل".

– مي حبيبتي، لا تقولي ذلك، سبق أن تعرضت وفقدت الأغلى والحمد لله وقفت على ساقيك، وجابهت قدرك وصمدت.

– نعم صمدت أنت قلت، ولكني لم أصمد إلا بوجودد.سهيل إلى جانبي، وهو الذي مدني بالطاقة، هو الذي أمسك بيدي وسند ظهري وفرش دروبي وردًا وأمنيات، هو الذي عوضني عن الأب والأخ، وكان لي نعم الأب والأخ والمعلم، كيف أنساه؟وهل سأستطيع العيش بدونه؟ لقد ظهر في حياتي في الوقت الذي تخلى عني وسام لأسباب تافهة، وكان يدرك كم أعاني من فقد أغلى الناس، وحزني على عجز أمي وبقائي وحيدة لا عون لي ولا سند،د.سهيل كان القوة التي انتشلتني من بؤرة القهر، الذي كنت منغمسة به، كان الرجل، كان القائد الذي رسم لي خطة الحياة وقدم لي خلطة النجاح، وسار بي واثقًا سعيدًا ومشرقًا، لم ينظر لي على أنني تلميذة تتعلم الطب أو مجرد يتيمة، أو عاشقة فاشلة، بل اعتبرني طموحة وصامدة، وأدوس على جرحي، وأحدق بعين الشمس بدون خوف أو تردد. قال لي مرة كلمة لم أسمع أجمل منها، ولا أعتقد أنني سأسمع حتى لو عشت مِئة عام، قال لي:"أنا أنتمي لجمهورية مي، تلك الجمهورية العابقة بالحب والفن والجمال".

لم يهتم أحد بديوان الشعر الذي أصدرته، الكل اعتبره تسلية وكلام لا قيمة له، ولكن الكل جاملني لمجرد المجاملة، لكن سهيل نظر لكلماتي وأحرفي نظرة قديس وعابد، نظرة متذوق للشعر والأدب، نظرة عاشق، وكان يصر أن يدعو أصدقاءه وزوجاتهم لنقيم في بيتنا جلسات أشبه بندوات أدبية، وكان يطلب مني إلقاء قصائد من ديواني الوحيد أمامهم ويجلس ليستمع إليّ، وكانوا بدورهم تصيبهم العدوى فيحذون حذوه ويستمعون لي ويناقشونني فيما كتبت، وحتى في معظم سهراتنا في البيت كان يحب أن ينهي السهرة بأن أقرأ له ولو سطرًا من قصائدي، وأكون في غاية السعادة حين يطلب مني ذلك.

"ولكن يا مي بماذا شخّص الأطباء حالة د.سهيل؟" تسألني خالتي.

– كسر في العمود الفقري، وفي الحوض، جروح داخلية، وارتجاج في المخ.

تنظر إليّ ثم إلى زوجها وتقول: دعنا نذهب إليهم، ونعرض عليهم ما تقوله مي، فلم يعد يجدي السكوت، ثم إنهم يجب أن يعرفوا بأن لها أهلًا يقفون بجانبها".

– هيا بنا، معك حق.

كان أولاده لا يزالوا جالسين، ربما كانوا بانتظار تقرير أو لقاء طبيب.بادرهم زوج خالتي، عرف عن نفسه ثم استأذنهم بأخذ دقائق من وقتهم، هزوا رؤوسهم جميعًا فقال: مي تعرض عليكم السفر بالطبيب للعلاج، وهي مستعدة لكل التكاليف أو المساهمة أو المناصفة، ليس هذا المهم، المهم أن نتفق على مبدأ السفر.

"نحن ننتظر، لقد أحضرنا له خيرة الأطباء. وإذا كان لابد من سفره فليس عندنا مانع، ونحن والحمد لله عندنا ما يكفي لعلاج والدي، نشكر السيدة مي". هذا ما تفوه به ابنه الأكبر.

– ننتظر! ماذا ننتظر؟ وإلى متى ننتظر؟

قال: الطبيبان اللذان أحضرناهم اليوم، إنهما وضعا في جسمه محاليل ربما تمكنه من التحسن والبقاء على قيد الحياة فترة أطول.

– أنا لا أثق بهؤلاء الأطباء.

– ومن أنت حتى تحكمي عليهم.

– أنا طبيبة، وأنا تلميذة والدك.

– واثنان من الأطباء هم أيضًا زملاء والدي.

خرج طبيب في هذه اللحظة مستعجلًا وعلامات قلق على وجهه، فسألناه بصوت واحد: ما الأخبار؟ هل هناك تحسن؟

لم ينظر إلينا، إنما أكمل طريقه ورد بصوت ضعيف: بعد ساعتين تعرفون كل شيء.

أحسست من طريقة كلامه وسرعته، والاصفرار على وجهه أنه قُضي الأمر، شعرت بسكين حادة قسمتني شطرين، لم أعد أستطيع الوقوف على ساقي، شعرت خالتي بي فأمسكتني وأسندتني وقالت:دعينا نجلس لا فائدة من الوقوف.

* * *

إنه اليوم الثالث على موت د.سهيل زوجي، أنظر حولي، أشعر كأن آلات صاخبة تعمل داخل رأسي، كأن مطاحن تطحن، كأن ماكينات تدور، أصرخ أتألم، تقترب خالتي حسنى تأخذني بين ذراعيها وتغمرني بقبلاتها، فيما زوجها ينظر إليّ بعينين ملؤهما الحنان والخوف والقلق،ويتركنا وينصرف.

يدخل طبيب، ويحقنني في الوريد.

مرت ثلاثة أيام أنظر إلى التقويم، كان يوم أربعاء، اليوم الجمعة، أعود إلى النوم، أستيقظ في اليوم التالي، أشعر بقواي تتحسن، وبأن آلام رأسي

قد خفت، خالتي إلى جانبي بين النائمة والمستيقظة، ما إن تلتقي نظراتنا حتى تبتسم وتقول: الحمد لله على السلامة مي.

– الله يسلمك خالتي، ماذا حصل لي؟

– ما إن سمعت بموت د.سهيل، حتى صرخت وبكيت، ورفضت أن تصدقي، بل كذبت جميع الأطباء والممرضين، وأولاد د.سهيل.

– وماذا بعد؟

– لا شيء، أنت الآن أفضل ولله الحمد.

د.سهيل مات، يا للحقيقة المرة التي لا أستطيع تجاهلها أو نسيانها، فتجاهلي لا يغير من واقع الحال شيئًا، لعل د.سهيل كان يعرف موعد موته قبلنا جميعًا، بل وكان مستعدًا له، أذكر في المرة الأولى التي اتفقنا فيها على دوامي عنده في المشفى، تحدث عن الموت، قال إنه الحقيقة الوحيدة التي لا يمكن نكرانها.

* * *

مرت عشرة أيام على موت زوجي سهيل الضاوي، وأنا أزور قبره كل يوم، أشعر أنه معي، حينما أضع يدي على القبر أتحسسه كما لو أنه معي إلى جانبي، كل يوم آتي إلى المقبرة أقف أمام القبر، أقرأ آيات من الذكر الحكيم، وأتأمل القبر، هل حقًا أن ثرى الرجل الذي أحب هنا؟وأنه سيبقى هنا للأبد ؟ولماذا لم يسمحوا لي بتحنيطه ؟لقد سخروا مني عندما قلت إنني

أرغب بتحنيطه، الجلوس أمامه وتأمله، أحد أولاده اتهمني بالجنون والآخر بالإلحاد، والثالث بأنني أبتدع شيئًا لألفت النظر، ولكن يعلم الله (عز وجل) أن مكان د.سهيل ليس هذا القبر، إنه في داخلي يتمدد في عقلي وقلبي، في مسامات جسمي، في دمي، في نفسي، في صوتي، في لون عيني، وسأبقى مخلصة ووفية له، حتى تأتيني المنية فألحقه إلى دنيا الحق، لنكمل حياتنا معًا هناك.

لحق بنا زوج خالتي إلى المقبرة، وتحدث بصوت منخفض وهو ينظر لخالتي: جاءني هاتف من ابن د.سهيل الكبير، يخبرني بأنهم سيحضرون خلال أيام لإجراء معاملات حصر إرث البيت والعيادة.

هززت رأسي.

"ماذا ستفعلين مي؟" يسألني زوج خالتي.

هززت رأسي وقلت:ذهب الغالي فلا أسف على الرخيص.

* * *

لكن ما حدث في الأسابيع اللاحقة كان أكثر من قدرتي على الاحتمال، مع اتهام أولاد زوجي لي بأكثر من تهمة، من ضمنها أنني تسببت في موته، لا أعرف أي محامٍ شيطاني تمكن من تلفيق مجموعة من الأكاذيب، غايتها أن أتنازل لهم عن كل شيء، أرادوا تجريدي من كل شيء، البيت، العيادة، السيارة، وليت الأمر توقف عند حدود المال فقط، حيث طال تشويه سمعتي وعلاقتي بأبيهم الرجل الوحيد الذي أحببت.

ريم حمدان

ظلت قصتي مع فؤاد معلقة بين شد وجذب، هو مأخوذ مني بعمله، بأسفاره، بأسرته، وأنا في الظل، لا أقوى على الابتعاد عنه، ولا على الجهر بعلاقتنا. صحيح أنه لم يكن يتغيب أكثر من ثلاثة أشهر عن بيروت، وأنه كان على تواصل يومي معي، لكن هذا لم يمنحني الأمان، كنت أتوق لحياة مشتركة معه، لكني كنت أرفض أيضًا أن أكون زوجة في الظل، وعدني كثيرًا بأنه سيصارح زوجته برغبته في الانفصال، لكن هذا لم يحدث، قال لي أن نجاة ابنة عمه وأنها احتملته في كل مراحل حياته، وليس من الإنصاف في حقها أن يتخلى عنها ويمضي.

كانت الاستراحة هي المكان المفضل بالنسبة له، وأصبحت كذلك بالنسبة لي، عرفني على صاحبتها منى ياسين، قال لي أنها صديقة قديمة. منى كانت تعرف كل شيء عن فؤاد من قبل أن يصبح فنانًا، لكنها لم تكن تخبرني أي تفاصيل عن حياته الماضية، وأنا كنت أحترم فيها هذا الجانب، لكن حين كانت تراني قانطة من غيابه الطويل كانت تنصحني بأن أفتش عن مستقبلي. وفي استراحة الزمن الجميل سمعت حكاية يارا التي تعذبت في الحب أكثر مني، ومي بدران التي أوجعها موت الزوج مثلي، لكني لا أذكر أني حزنت قدر حزنها على رحيل زوجي. إن سماع حكايات الآخريات جعلني أرى حكايتي في مرآة صافية.

أراد فؤاد أن يشغلني عنه، أن لا يكون هو محور تفكيري، لذا دفعني في اتجاه آخر، والغريب في الأمر أني كنت لينة وراضية، ومضيت في درب جديد أكثر زهوًا وبريقًا.

ياه! كم تبدو حياتي القديمة بعيدة عني الآن، الزوجة البيتوتية، ثم الأرملة الوحيدة، ثم الصحفية المتعثرة، لم تبقَ أي ريم من كل هذه الشخصيات، أو ربما ظهرت ريم جديدة تجمع هذه الشخصيات جميعًا، تمامًا مثلما نشاهد صورة قديمة لنا في ريعان شبابنا، وصورة أخرى بعد مضي عشرة أعوام، ونكتشف أن صورتنا بعد أن تقدم الزمن بنا أفضل من الأولى، ياللعجب أن تتبخر نظرية سن الشباب الذهبي، ليصير سن الكهولة هو الأجمل.

أظن أني على الشاشة أبدو أكثر جمالًا الآن. الشاشة تحول المرأة العادية إلى نجمة ساحرة، يشير إليها الجميع، ويتمنون الإقتراب منها.

استراحة الزمن الجميل

سمعت مي عن محامية اسمها ريا رضوان قديرة بعملها، واختصاصها الدفاع عن قضايا المرأة، حصلت على رقم هاتفها، واتصلت بمكتبها وحجزت موعدًا للقاء.

منذ اللقاء الأول غمر مي ارتياح كبير؛لأن ريا رضوان بدت متفهمة تمامًا لحكايتها، وقدمت اقتراحها قائلة:

- سأحاول التفاهم معهم من دون اللجوء إلى المحاكم، هل لديك مانع؟

- أبدًا، هذا ما أفضله.

بعد عدة أيام اتصلت بمي وأخبرتها أنهم يطلبون منها التنازل عن الفيلا؛ لأنهم يعتبرون أنها إرث عائلي خاص، ومقابل ذلك سيتركون لها العيادة. كانت المقارنة بين نصيب مي في الفيلا، وبين العيادة مجحفة في حقها، لكنها لم ترغب أبدًا في الوصول معهم إلى ساحات القضاء.

فكرت أن لديها من المال الكثير الذي لم يجلب لها السعادة، ثم ما الذي ستفعله في تلك الفيلا الكبيرة سوى استعادة ذكريات أيامها مع مع زوجها الراحل؟ هم لا يعرفون أنهم يقدمون لها الرحمة من شتات الذاكرة الذي سيعذبها كلما نظرت إلى كل ركن من أركانها.

اتفقت مع ريا رضوان أن تسلمهم الفيلا بعد أسبوع، فأخذت تنقل أشياءها إلى العيادة، فقد كانت كبيرة وواسعة، وهي لن تحتاج لأكثر من غرفة للنوم وأخرى للعمل.

في يومها الأخير في الفيلا، كانت مي تتأمل كل ركن، كل زاوية، تُقبل الحيطان كما لو أنها بشر ودموعها تغطي وجهها.لعل ما خرجت به مي من تلك المرحلة هو صداقتها مع ريا رضوان، التي صارت حاضرة في حياتها دائمًا، في كل موقف صعب كانت تبادرها ريا وهي تربت على كتفها قائلة:مي متى تتخلصين من رهافة الحس هذه؟كيف بربك تتمتعين بهذه الميزة وأنت طبيبة؟ الحياة تحتاج لصلابة وقسوة.

وفي آخر يوم لنقل متاعها طلبت من ريا أن تزورها لتناول الغداء للمرة الأخيرة في البيت الأجمل والأغلى في قلبها، وافقت ريا بفرح وأردفت قائلة:أنا أيضًا أعد لك مفاجأة، لست أدري، هي شيء يسعدني ستعرفينه في حينه.

تناولتا الغداء وهما تستمعان إلى معزوفات موسيقية هادئة وتشربان عصير الرمان الذي كانت الخالة حسنى تجيد تحضيره. عند خروجهما من البيت، كانت نظرات ريا ترثي لحال صديقتها وهي تعطيها مفتاح الفيلا لتسلمه لمحامي أولاد زوجها.

بعد دقائق من الصمت، وبينما ريا تقود السيارة مبتعدة عن الفيلا، قالت مي: ما هي المفاجأة التي حدثتني عنها؟

ابتسمت ريا قائلة:الآن سترين.

أوقفت ريا سيارتها في منتصف الطريق، وقالت: انظري واقرئي.

نظرت مي نحو يافطة مكتوب عليها:(استراحة الزمن الجميل).

تمتمت مي: لم أفهم!

- هذا المشروع هو حلم عمري أنا وصديقتي منى ياسين، والآن حفل الافتتاح.

يا لغرابة الأقدار، ريا ستفتتح مشروع عمرها، ومي تُسلم مفتاح حبها وبيتها لمن لا يعرفون قيمته، بقت مي صامتة لهنيهة قبل أن تستدعي عبارات التهنئة والمباركات.

نزلتا من السيارة، أمسكت ريا يد مي وقالت: تعالي أعرفك إلى منى.

وجدت مي نفسها أمام سيدة أنيقة جميلة، قدمتها ريا بوصفها صديقة عمرها منى.

خارج الجدران

في اليوم الأول من عودتي للعمل في العيادة، كنت أشعر بأنفاس سهيل معي، يده تربت على كتفي، ولا عجب فأنا منذ موته لم أكف عن زيارة ثراه يوميًا، ولو لمدة عشر دقائق، أجلس إلى جانب القبر، أمسحه بيدي، وأحيانا بدموعي، أسقي الورد المزروع وأحادث سهيل، أقول له كل ما لدي، أستشيره في بعض القضايا كما لو أنه لم يمت أبدًا، وأتذكر قول الفيلسوف ابن عربي حين وصف حبيبته (نظام):"عاشت في قلبي ولم تمت أبدًا".

أنا أيضًا سيظل سهيل في داخلي حيًا لن يموت أبدًا، ما دام في جسدي قلب ينبض.

أصبحت الاستراحة المكان المفضل لديّ، حيث كنا نتواعد أنا وريا التي أصبحت صديقتي الأقرب، فنقضي وقتًا جميلًا، ترافقنا السيدة منى التي قالت عني بعد لقائنا بأيام: "رائع أن تنضم طبيبة جديدة لمجموعتنا". في نفس اللحظة تقدمت شابة جميلة فعرفتني عليها قائلة: "دكتورة يارا القاضي"،التي رحبت بي: "أهلًا أهلًا بزميلتي، ما هو اختصاصك؟".

– السنة سأدخل لأتخصص في جراحة القلب، وأنت؟

– أنا صحة عامة، لقد اكتفيت بالصحة العامة ولن أكمل.

داخل جدران الاستراحة، كنا جميعًا كأننا نعود طفلات من جديد، حين لا يكون المكان مكتظًا بالزبائن، ولا تضطر منى أن تتركنا؛ نجلس كلنا معًا أنا وريا وريم ويارا، نبكي ونضحك ونغني، نبوح بحكاياتنا، نستمع للموسيقى، ونتشارك الكتب والروايات والأفلام، تعلمت في الاستراحة كيف أن رفقة النساء لبعضهن تخفف عن أرواحهن ما فيها من شروخ وآلام.

* * *

مضت السنة الأولى على رحيل د.سهيل، كنت أحس أنه حاضر بروحه معي، كأنه يشجعني ويبث بي القدرة على المواصلة، وبين المستشفى والعيادة واستراحة الزمن الجميل، وزيارة الضيعة، مضى الزمن بي.

كانت الفكرة التي تلح علي وينبغي تنفيذها هي بناء مستشفى يحمل اسم سهيل الضاوي، لذا تقدمت بطلب قرض شخصي بضمان الحجز على أملاكي؛ لأني أنوي إنشاء مستشفى من طابقين، أقدمه هدية نجاحي للدكتور سهيل؛ لكي يبقى اسمه مشعًا وممتلئًا داخل عالم الطب وداخل كياني.

أرسلت إلى أبنائه عبر محاميتي ما أنوي فعله، ابنه الأصغر سامح تواصل معي فأرسل مبلغًا من المال ليساهم في هذا المشروع، قال لي وهو يسلمني الشيك مع ابتسامة ضاحكة تضيء وجهه:لا تنسي أن تحسبي حسابي عند الأرباح.

ثم أردف: أنا أمزح طبعًا، كان المفروض أن يفكر بهذا الموضوع أنا أو أحد إخوتي،ولكن لطالما افتقدت الأخت،وهأنذا أجدها قد تجسدت بك، أعتذر بالنيابة عن نفسي وعن كل أخوتي عن كل ما فعلناه نحوك.

تذكرت في تلك اللحظة، عندما قال لي سهيل إنه تمنى لو أن أحد أبنائه درس الطب، وأنه عندما رآني تمنى لو كنت ابنة له لتخلد اسمه في عالم الطب. ومنذ هذه اللحظة سيكون هذا المستشفى الصغير بيتي وملجئي ومنارتي.

أصرت صديقاتي أن يحتفلن بي وأن يقمن حفلًا متواضعًا في الاستراحة، وقد وجهن الدعوة لأختي وخالتي في ضيعتنا، كانت هذه المشاعر تسعدني وتغمرني بفيض جمالها، لم أعد أشعر بالوحدة أبدًا. ولكن كان أول عمل قمت به أن لبست أجمل ما عندي من ثياب، وتعطرت وتجملت وذهبت إلى ثرى د.سهيل؛ لنحتفل معًا بتشييد المستشفى الذي سيحمل اسمه.

فراشة غجرية

يارا أم كارمن؟كارمن أم يارا؟

هل الشقاء يبدأ مع وجود اسمين؟

أنجبتني أمي في ليلة مقمرة، كانت عائدة فيها برفقة أبي من مشاهدة أوبريت كارمن، ولأن أمي أحبت كارمن وسحرتها تلك الغجرية الراقصة؛ أصرت أن يكون اسمي كارمن، لكن أبي لم يكن يحب أن يكشف اسمي عن أي ديانة أو طائفة، كان يناديني يارا، مداعبًا أمي بصوت مرح بمعنى اسم يارا ليقنعها قائلًا:"وهل أجمل من أن تكون طفلتنا فراشة صغيرة بدلًا من غجرية؟ حرام عليك يا حنان أن تُعذبي ابنتك بهذا الاسم!".

ربما حنان كانت مقتنعة بصواب كلماته، خاصة أنها اتفقت معه على اسم يارا منذ شهور الحمل الأولى، لكن وفاءها للدموع المذروفة على رحيل الراقصة الغجرية كان أكثر تأثيرًا في وجدانها.

ولم أعرف أني سأرغب بأن أعود لأكون كارمن ذات يوم.

* * *

منذ عشرين سنة أحببت أيمن، ومنذ تلك اللحظة عرفت أنه لا ينوي جديًا الارتباط بأي امرأة، ويفضل عليها العلاقة الحرة. كان مهووسًا بكتابة

تقاريره ومقالاته الصحافية وبالمشاركة بالعمل السياسي، يتبعه إلى أقاصي الأرض، تغريه الحروب، تلفت نظره الأخطار، تجذبه التناقضات، يسعى إليها، لا يتعب ولا يمل، لا يشكو، ينظر للأطفال نظرة حنان وتفاؤل، ولكنه أبدًا لا يحلم بامتلاك طفل؛لأن مسؤولية طفل شيء فوق احتماله، يحب اقتناء الحيوانات، يهتم بها، ويسهر على راحتها، لكن الأطفال لا.

منذ اللحظة الأولى لتعارفنا أعجب أحدنا بالآخر، كان في المرحلة الأخيرة للدراسات العليا في العلوم السياسية، وكنت أنا أتابع دراستي في كلية الطب، بقي يتردد على الجامعة ولم ينقطع عنها، حتى بعد انتهائه منها، وكنت أتابع أخباره، وما إن أنهيت دراسة السنة الأخيرة في الطب العام، حتى عرض عليّ أن أعمل معه في نفس المنظمة التي كان يعمل بها، لم أتردد والتحقت فورًا بالعمل؛ذلك أني أنا الأخرى كنت مهووسة مثله بالسفر ورؤية العالم.

لم يكن لي أي اهتمامات سياسية، ولكنه كان خير معلم لي، وأخذتني أفكاره وآراؤه إلى عوالم لم يسبق لي الخوض بغمارها، وأخذ وعيي السياسي ينضج ولكن على مهل، وكنت أرى الحقائق واضحة وبدون تزييف، وهذا الجانب أثرى علاقتنا وجعلها أكثر تماسكًا، وأثناء ذلك عشنا معًا في كل مدينة كنا نتواجد بها في فرنسا، في بلجيكا، في ألمانيا، ولكن بعد سنوات من هذه الحياة المليئة بالمخاطر التي كان يتعرض لها كلينا، وأيمن بشكل خاص أكثر مني، ذلك أنه لم يكن يرفض أي مهمة توكل إليه أو أي مكان مهما بلغت سخونة الوقائع به، فمرة تكسر ساقه أو يده، وأخرى

تدخل رصاصة في خاصرته، أو تكسر أسنانه الأمامية، هكذا كانت حياته لكن هذة الحوادث لم تكن تثنيه عن عمله، بل تجعله متشبثًا به أكثر، ولم يكن وضعي بأفضل منه، ولكن كنت أتواجد بعيادة في مكان آمن نسبيًا، بين فترة وأخرى بدأ الملل يعتريني، وأخذت أفكر بعلاقتنا وما ستؤول إليه، فنحن نتقدم في العمر، وعلاقة الحب بيننا في قمة توهجها فماذا ننتظر؟ كنت على يقين بأن أيمن في يوم ما سيفاتحني بموضوع الزواج، وإن لم يفاتحني، فإنه لن يرفض إن بادرت أنا وفاتحته، فإنه حتمًا سيسارع لطلب يدي من أسرتي، خاصة أن أهلي كانوا قد جهزوا أنفسهم لهذا الحدث.

وكنت أنتظر اللحظة المناسبة لأحسم هذا الأمر، كانت المرة الأولى التي نذهب لنستلم تلك الشقة التي اشتريناها لنعيش فيها معًا، وعند خروجنا لشراء بعض الحاجيات، قرب المصعد سلمت علينا سيدة أربعينية وعرفتنا على نفسها، إنها جارتنا منى ياسين،تسكن في الطابق الثالث،وهي أيضًا صاحبة الاستراحة التي تقع أسفل المبنى، وسألت من باب التعارف: منذ متى وأنتما متزوجان؟

"منذ عشر سنوات" رد أيمن.

– هل عندكم أولاد؟

"كلا" أيضًا رد أيمن، وأردف وهو يبتسم:"هل من أسئلة أخرى؟"

أذكر أن وجه السيدة احمر وردت عليه بلطف شديد: أعتذر منك أيها السيد، أنا لا أقصد التطفل، إنما أحببت أن أتعرف على الجيران المقابلين لشقتي؛لأننا سنلتقي كثيرًا بعد اليوم.

رد أيمن: كلا لن نلتقي كثيرًا، فنحن دائمًا على سفر.

ردت السيدة منى: أحقًا؟ هذا من سوء حظي.أتمنى رؤيتكما في استراحة الزمن الجميل.

قالت ذلك وانصرفت، ونحن بدورنا أكملنا سيرنا.

كانت أنسب لحظة لأبث ما أشعر به وألقي الضوء على مشاريعي المؤجلة، سألت أيمن: لماذا قلت لها إننا زوجان؟

ابتسم ابتسامة طبيعية جدًا وقال:ألسنا زوجين حقًا؟ وماذا أقول لها؟ أقول إننا عاشقان أو صديقان؟

أكملت وأنا أتكلم جادة: إذن فأنت تعرف بأن وضعنا ليس طبيعيًا، والزواج هو الإطار الوحيد الذي يعترف به المجتمع.

رد عليّ:ولكننا لا نعيش في هذا المجتمع.

- وكيف ذلك؟

– إننا نعيش في الطائرات في الخارج، وانتماؤنا لعملنا ولظروف عملنا أكثر من انتمائنا لجغرافية وتضاريس هذا الوطن.

قلت له: في المرة القادمة عندما ألتقي هذه السيدة سأخبرها أننا لسنا بزوجين، ولا يهمني رأيها أو رأي غيرها، أنا مسيحية، أمي علمانية، وكذلك أبي، وقد عاشا في الخارج فترة طويلة، وقد ربياني على احترام نفسي والتمتع باستقلاليتي، لم يطالباني بتقرير عن حياتي وعلاقتي بك؛لأنهما على ثقة بأنك لا تنظر لعلاقتنا على أنها علاقة عابرة، وإلا انتهت من زمان، ولكن استمرارها هو دليل بقائنا عليها وتشبثنا بها. إن أهلي يحترمون خصوصيتي ولكنهم يريدون لنا الاستقرار، وليس من سبب عندي أو عندك يمنع زواجنا، وإلا ما معنى هذا الحب المعلق في الهواء؟

– بالنسبة لأهلك وتعاملهم معك، أحترم كثيرًا هذه الطريقة في التعامل بين الأهل والأولاد، أما بالنسبة للجيران فليس لهم الحق بالتدخل بخصوصياتنا، كما أننا نحن لن نتدخل بخصوصياتهم، أما بالنسبة لردي على السيدة حين سألت، فلقد كنت أعتقد بأن هذا الجواب سيناسبك.

– أنت تحيرني حقًّا!من جهة لست مقتنعًا بالزواج، ومن جهة ثانية ظهورك مع سيدة بوضع حميم، تضفي عليه في التو واللحظة صفة الشرعية، أعتقد بأنه آن الأوان لوضع حد وصفة أساسية لعلاقتنا!

– يارا.. أنت حرة، أن تضعي أنت الصفة الشرعية أو غير الشرعية، ولكن ليس من حقك أن تفرضي عليّ أمرًا لست مقتنعًا به ولست مستعدًا له.

– لست مستعدًا؟ ومتى ستكون مستعدًا؟ وهل أبقى أنا رهن إشارتك حتى تتكرم وتمنحني شرف الزواج بك؟

– يارا، يخيل إليّ أن الحوار بيننا خرج من دائرة الاحترام ودخل في دهاليز الأنا المظلمة.

نهايات الشغف

بحلول السنة الخامسة من عمر الاستراحة، أشياء كثيرة تغيرت، ريم انتهت من علاقتها مع فؤاد عزت بعد قصة وَلَهٍ جارف، لكنها بدأت في الاستعداد لتقديم برنامجها التليفزيوني. مي غرقت أكثر في عملها بالمستشفى، وريا صارت تتغيب عن الاستراحة لأن نوبات صداعها تتكرر باستمرار، أما يارا فكنا نجهز لعيد ميلادها، لكنها لم تكن سعيدة، كانت كمن ينتظر حكمًا بالإعدام.

سألتها: وماذا بعد؟

قالت: النهاية تلوح أمامي، ماذا أنتظر؟لن أستطيع أن أحني رأسي للريح.

كنت في بداية معرفتي لحقيقة هذه العلاقة، في حيرة شديدة، ففي أعماقي كامرأة فهمت حب يارا، وكيف كانت تنظر لمستقبل هذه العلاقة، أما أيمن فلقد كان في موقفه أشبه بصخرة في عرض البحر ثابتة لا تتحرك ولا تهتز.

يارا قد تعبت من عدم الاستقرار، والحياة غير المنظمة، كانت تطمح لحياة مستقرة، وطفل وبيت يظلله الأمان.أما أيمن فلقد كان جل همه العالم

والحروب، وكل ما يمكن إنقاذه، وهو أبدًا لا يطمح بزواج وحياة أسرية عادية.

قال لي أيمن ذات مرة: لو تزوجنا فإني أبدًا لن أنجب طفلًا، أما يارا فإن الهدف الأول بالنسبة لها من زواجنا فهو إنجاب طفل، لن أقف يومًا عاجزًا أمام طفل يحتاج شيئًا لا أستطيع أن أعطيه له، أنا أحب يارا وأريدها أن تبقى في حياتي، فلست أتخيل حياتي بدونها، انظري سافرت إلى نصف الكرة الأرضية وليس في حياتي غيرها، وليس بيننا من خلاف إلا هذا الموضوع.

قلت:لكنه موضوع مهم جدًا.

قال وهو يهز رأسه:للأسف نعم، لكن حتى الآن أنا غير مقتنع بالقيام بهذه الخطوة.

استعرضت في ذهني هذا الحوار، بينما يارا تقول إنها تستعد للنهاية.قلت لها وأنا أربت على كتفها:"يارا حبيبتي، اليوم عيد ميلادك، لنحتفل ولا تفكري إلا بكل ما يسعدك". نظرت إليّ وقالت:"نعم، ولم لا؟".

حضر كل أصدقائنا، وأكلنا الحلوى، وكانت يارا تبدو بتسريحة شعر جميلة جديدة وثوب أنيق أشبه بملكة، وعندما وضعنا موسيقى للرقص، رقص أيمن ويارا وأصدقاؤهما.

وفي اليوم التالي وبينما كنت أراجع بعض حسابات الاستراحة، فإذا بي ألمح يارا قادمة، دخلت وما إن اقتربت مني وألقت السلام، حتى لمحت توترًا وقلقًا في ملامحها، سألتها: ماذا هناك؟أين أيمن؟

– لقد سافر.

– وهل اتفقتما على شيء؟

– نعم، إنه الاتفاق الأخير بيننا.

– ماذ تعنين؟!

نظرت إلى الأرض وأشعلت سيجارة، وبدت على وجهها علامات من فقد آخر أمل لديه.

قالت: قلت لأيمن إنني سأخرج من حياته بشكل نهائي، تركته دون وداع، وأكدت له أن لا يتعب بالبحث عني، فلن يجدني، ولن يجد ما يدله على مكاني.

– أتتكلمين جادة يارا ؟

– نعم، هذه المرة لن أتراجع أبدًا عن قراري.

– ولكن!..

– انتهى الأمر، لم تعد هذه الـ(لكن) مهمة، لم يعد لها معنى في وجودي.منذاليوم كل منا يسير في الطريق التي اختارها لنفسه، وأنتِ منى،أستحلفكِ بكل عزيز أن لا تطلبي مني أن أتراجع عن قراري هذا، وأن لا تحاولي البحث عني عندما أغيب، فلا فائدة من ذلك.

– يارا هل تدركين خطورة ما أنت مقدمة عليه؟

– الخطورة فيما كان، وليس فيما سيحصل، لن يحصل شيء بعد الآن.

شعرت أنني عاجزة عن إقناعها وتقديم تبريرات لها، ضغطت على أناملها وسألتها:"هل نشرب قهوة؟" هزت رأسها وقالت:"لم لا، قد أشتاق لقهوتك ذات يوم، وأحن لمذاقها المميز".

وحقًا، كانت المرة الأخيرة التي شربنا بها قهوة معًا، لن أنسى يارا أبدًا كانت دائمًا قوية، متألقة، صادقة، مخلصة، معطاءة، دائمة الابتسام والتفاؤل، لكني لم أكن متأكدة بأنها تتكلم جادة، حينما خبرتني أنها حسمت نهائيًا موضوع انفصالها عن أيمن ونسيانه تمامًا، لقد نظرت للموضوع على أنه حالة غضب عابرة، ككل مرة تغضب بها من أيمن وتعود إليه، أحيانًا يستمر الغضب لأشهر، وأحيانا لسنة، ولكن بعد فترة يعودان كعروسين في فترة شهر العسل.

بالنسبة لي كنت أنتهز كل فرصة لألفت نظر أيمن لضرورة وحسنات الزواج، ولكن هيهات! كأني أرمي ملحًا في بحر صاخب الأمواج، وكنت أعود ليارا لأذكرها بأنهما معًا ولا يستطيع أن يستغني أحدهما عن الآخر، فليبقَ كل شيء بينهما كما هو، حتى لا يخسران الحب الكبير الذي يجمعهما.

هزت رأسها وقالت: لقد مللت، لم يعد الحب يكفيني فقط، أريد بيت وأسرة وأطفال، أليس هذا من حقي!

كنت أتأملها وأذكر قول الإمام علي الصبر نوعان، صبر على ما تكره، وصبر على ما تحب، وهي قد صبرت حتى نفذ الصبر منها.

أيمن أبو أسعد

ياللحياة الشرسة، ساعات الصباح هي الأقسى بالنسبة لي، حيث يكون علي بدء يومي ومواصلة الحياة في بلد قاسٍ مثل لبنان، كيفما تلفت أجد الطائفية الدينية والمذهبية تخنق البشر، حتى بين الأصدقاء حين أقول لهم إني علماني، وإني لا أقيم الناس إلا بناء على أخلاقهم ومواقفهم الإنسانية نحو العالم، أراهم يبتسمون ابتسامة غامضة.أعرف أنه لا يوجد عدل مطلق، حتى في المؤسسة المدنية التي عملت فيها أنا ويارا، كنت أرى كيف تتغلغل الطائفية والمذهبية حتى في تقديم المساعدات للمحتاجين، بلد انتهت فيه الحرب وكأنها لم تنتهِ، لم يعد هناك دمار خارجي فقط، لكن الدمار النفسي لم يلتفت إليه أحد، ولم يعمل أحد على ترميمه.

يوم قامت الحرب عام ١٩٧٥، كنت في الخامسة عشر من عمري، كنا نسكن في بيروت الشرقية، أبي كان مسيحيًا، وأمي مسلمة، كلاهما لم يحدثني عن الدين أبدًا، ظلا على قناعتهما في أحلك الأوقات أن لا تُسبب كتب الله بينهما أي خلاف، كانا أجمل زوجين رأيتهما في حياتي.

لكن مثاليتهما في التعامل مع الطائفية في لبنان لم تتمكن من حمايتي مما يحدث في الخارج، حين يتفتح وعي المراهق على حرب طائفية شرسة، وحين أشاهد الدم المسفوك على المعابر بين المسلم والمسيحي، وحين نضطر للانتقال بين طرفي بيروت هربًا مرة من اعتبارنا مسيحين، ومرة من

اعتبارنا مسلمين، يصير من الصعب عليّ نسيان هذا، ومن المستحيل الاقتناع بتكوين أسرة، بالزواج وإنجاب طفل لا أضمن له حياة مستقرة، وأنه لن يشاهد الدماء التي شاهدتها تراق بين الإخوة.

ثم أتت يارا، وكل الحب الذي بيننا، العشق الذي حملناه بين الضلوع ونحن نجوب العالم، ينتهي به المطاف للاختيار بين الزواج والفراق.

يالها من مساومة بليدة تدعو للنفور! لأن يارا لم تشكو من قلة الحب، من خيانتي لها، من تفضيل امرأة أخرى عليها، لا، بل إنها عادت لتكون مثل أي امرأة أخرى تبحث عن الاستقرار بين حيطان أربع، تطهو الطعام للزوج والأطفال، وتحيك الجوارب الممزقة، الطبيبة التي عرفتها، والتي كانت مثلي مؤمنة بضرورة انقاذ هذا البلد من الخراب الذي ينخره، عادت لتكون مجرد امرأة عادية، ياخيبتي وحزني حين صدقت أنها مختلفة عنهن جميعهن، وأنها سترضى بأن نبقى معًا كما نحن دون زيادة أو نقصان! لكن هكذا هن النساء كائنات مدجنة حقًا.

يـــارا

أعود متعبة في كل يوم، ليس قبل الثامنة أصل إلى البيت، وأشكر الله أن بيتي يوفر لي العزلة التي أحتاجها.فور عودتي من العمل بينما كنت أتناول طعامي، تذكرت بأنه يجب أن أتصل بأختي سعدى أهنئها بولادتها، وألومها على إصرارها على تسمية طفلتها يارا.

رد عليّ زوجها بأنها نائمة ولا يستطيع إيقاظها، ولما وجدني في صمت، وشعر أنني بحاجة أن أتكلم مع سعدى، قال: هي أيضًا تفتقدك، وقد اشترت لك بعض المطرزات والتحف التي تحبينها، وغدًا سيصل إلى دبي صديق ليسلمك إياها.

– متى؟

– سيتصل بك هاتفيًا قبل أن يحضر للقائك.

– لا بأس، ولكن دع سعدى تكلمني عندما تستيقظ.

بعد يومين، رن هاتفي في المساء، إنه رقم غريب، هل أرد أم لا؟ قلت لعله مريض، أو مريضة تطلب استشارة، سأرد لم لا؟

سمعت صوت رجل، عرف عن نفسه فورًا، قلت: أهلًا، تستطيع الحضور إلى المستشفى غدًا.

وانتهت المخابرة بهذه الكلمات، ولكن ثمة شيء في صوت هذا الرجل لفت نظري لست أدري ما هو.

في صباح اليوم التالي، حضر جهاد رزق في العاشرة تمامًا، سلم عليّ وعرفني على نفسه، وسلمني الكيس الذي أرسلته أختي.

كان رجلًا في مثل عمري، متوسط الطول، بشرته سمراء، له شاربان رفيعان وأنف مستقيم، بدا أنيقًا يتمتع بذوق رفيع، كما أن الساعة الأنيقة باهظة الثمن والخاتم الذي كان يزين إصبعه يدل على أنه موفور الحال.

سألني عن عملي، ولكن بطريقة فيها كثير من التهذيب واللياقة، وقال إنهجاءإلى دبي مع زميلين له، ولكنهما سافرا وبقي هو لإنهاء موضوع معين، وسيغادر بعد خمسة أيام.

ثم سألني: هلا أخبرتني عن مطعم يقدم طعامًا طيبًا؟

فكرت، هل هو يريد أن يدعوني للغداء ووجد أنها الطريقة الأنسب كي لا أرفض؟

ولكن هذا رجل أرسله زوج أختي، ولو أنه ليس واثقًا منه لما أقدم على خطوة كهذه، ولكن هل تعمد زوج أختي أن يرسل هذا الرجل بعد وضع خطة هو وأمي بعد حوارنا الأخير عن الزواج؟

لا شعوريًا قلت له:أنا أدعوك للغداء اليوم..

لم يفاجأ الرجل، لكنه تمسك بكبرياء وهمية فقال:ولكن لعلك مشغولة، لا أريد أن أفرض نفسي عليك إنها أيام خمسة.

– أنا أدعوك اليوم ولن أتراجع، أما بقية الأيام فلنؤجل الحديث بشأنها، لماذا نستبق الأمور؟

– معك حق.

قالها بلهجة من أتم صفقة رابحة، وأكمل:ولكن في أي وقت تتناولين غداءك عادة؟ وأين تحبين أن أنتظرك؟

كدت أضحك عندما سألني عن الساعة التي أتناول بها غدائي، ولكني أخبرته عن ساعة لقائنا وعن المكان الذي سينتظرني به.

وفور انصرافه، أخذت أفكر، لماذا دعوته؟ولو لم أدعه فهل كان هو سيدعوني؟وهل كنت لأقبل؟المفروض والطبيعي أن الرجل هو الذي يدعو المرأة، ولكن هو جاء وحمل لي معه أغراضًا، أي أن الذي بيننا هو علاقة معرفة، أو فلنقل علاقة عائلية، وليست علاقة امرأة برجل أو العكس، ولكن هو كان طبيعيًا للغاية وكأنه يعرفني منذ زمن، أو كأنه جمع المعلومات عني وجاء خصيصًا ليتعرف إليّ.

في ذلك المطعم وجدته بانتظاري وقد غيّر ملابسه، فبدا أكثر وسامة، أما أنا فلم أنتبه أنه كان علي تبديل ملابسي، فأنا لم أجهز نفسي لحدث كهذا، حتى إني لاحظت أنه كان يتأملني.

كانت شهرة هذا المطعم قائمة على أنه يقدم أفخر أنواع السمك، حكيت له أن هذا المطعم هو أول مطعم دخلت إليه عندما حضرت إلى دبي.

سألني عن قدومي إلى دبي، ثم حدثني عن عمله وعن زوجته التي كان يعبدها وكيف لقت حتفها وهي تقود سيارتها استعدادًا لاستقبال أختها العائدة من السفر.

الآن عرفت سبب حزنه الكبير.

"أنا آسفة لذلك"قلت وأكملت: هل عندك أولاد؟

– نعم، شابان يستطيعان الاعتماد على نفسيهما".

ثمة إحساس غامض في لقائي مع جهاد رزق، ملتبس بحيث لم أتمكن من مناقشة نفسي بشأنه، كنت أحتاج العودة إلى ذاتي كثيرًا.

* * *

مرت أعوام على قدومي للعمل في دبي، الماضي أصبح ورائي، لكن في العمق كنت مقسمة لقسمين، قسم يطلب أيمن والآخر يعتبره مجرد ورقة طارت في الهواء، أو ذكرى يجب أن أدوسها بنسياني ولامبالاتي، ولكني أقول إنني عبرت الامتحان بصعوبة، نعم، بتعب، بجهود بذلتها، بتعذيب

نفسي. ولكن كنت أطبق مثلًا كان يردده والدي:"عز نفسك كي تجدها"، وأنا قد رفعت الضيم الذي وقعت عليه نفسي وأنقذتها من سحق مؤكد.

وكانت سعدى تسألني بين فترة وأخرى: هل أغلقت قلبك كليًا أمام الحب؟ ولماذا ليس من حقك أن تخوضي تجربة أخرى؟

– الآن وبعد أن أضعت عشرين سنة من عمري في حب رجل، أعود فأفكر برجل آخر، كيف يكون ذلك؟

– أخشى يا أختي أنك ظلمت نفسك للمرة الثانية، عندما وضعت خاتم الزواج الوهمي في إصبعك.

– أتعتقدين ذلك، لم أفكر بهذا الموضوع، حياتي أصبحت موزعة بين العمل والأصدقاء، والآن أتعرفين بماذا أفكر؟ إنها فكرة راودتني عندما كنت أعمل في تلك المنظمة، أن أسجل تجربتي عن تلك السنوات كي أصيغها في كتاب، ولكن ترى هل يجب أن أنشرها باسم يارا أم كارمن؟

– إنها فكرة رائعة ستأخذ منك وقتًا، وستضفي رونقًا إلى حياتك، هل تفكرين أن تكتبيها باللغة العربية أم بلغة ثانية؟

– أفكر بأن أكتبها بالإنجليزية.

– أكيد أفضل سيقرؤها أكبر عدد من الشعوب.

– ابدئي، أشجعك بأن تبدئي.

– سأبدأ بأقرب فرصة.

حكيت لسعدى عن لقائي مع جهاد رزق، ثم فجأة قلت لها: لكني أحتاج القدوم إلى بيروت أولًا.

– تعالي..مضت أعوام لم نشاهدك.

بالنسبة لي يبدو كما لو أن دهرًا مر على قطع صلتي بكل من أعرف، تركت عملي، هجرت أصدقائي، تغيبت عن أهلي كي أتمكن من نسيان أيمن؛ كي لا أضعف في لحظات وأعود إليه.

* * *

مرت ساعتان على وصولي إلى بيروت، استأجرت سيارة وانطلقت أجوب بها شوارع بيروت، المدينة التي أحب، والتي شهدت فصول علاقتي بأيمن، وما آلت إليه.وأخيرًا وجدت نفسي أمام ذلك المبنى، الذي كان مستقرًا لحبنا، كنت في مكان أستطيع أن أرى الداخل والخارج، وكأني تعمدت أن أصل في الوقت الذي أعرف أنه موعد نزول أيمن من البيت لإحضار الجريدة، نعم رأيت أيمن يخرج من المبنى وبيده كيس، كان يرتدي قميصًا أبيضً وسروالًا جينز، لا شعوريًا قدت السيارة وغيرت مكانها حتى لا يراني، ولكن لو أنه رآني هل سيعرفني ؟هل سيهديه إحساسه إليّ؟هل قلبه سيخفق، وينبئه بأن يارا قريبة منه؟ لقد خلعت النظارة لأراه ولو من

بعيد، قلبي يكاد أن يتمزق، وذراعي تؤلمني، تأمرني بأن أركض باتجاة أيمن، وألقي بنفسي بين ذراعيه، وأبكي كثيرًا، وأطلب منه أن يسامحني لغيابي، وانقطاعي عنه، أتمنى لدقيقة أن أشم رائحته، أن أمرغ رأسي بصدره، أن أعبث بشعر ذقنه، أن أقبل كل جزء من وجهه، ولكن ذلك ما تريده يارا وما كانت ستفعله، يارا الضعيفة الحائرة، الخائفة، العاشقة، المستسلمة، المنتظرة شهريار أن يسمح لها بالحياة، لكن ليس هذا ما تريده كارمن.

فيما الألم يمزق داخلي أدرت محرك السيارة عائدة إلى البيت، تناولت حبة مسكن وتمددت في سريري، دخلت أمي إلى الغرفة، قالت:لماذا أنت مستعجلة ؟ فلتبقِ عدة أيام أخرى،سيحضر أخويك سامر وضاهر، فرصة أن تجتمعوا معًا.

كنت أجاهد أن لا أدع أمي تضطلع على حقيقة مشاعري بشتى السبل.لم أرد عليها، وهي تعرف أنني عندما لا أرد معنى هذا أنني أفكر بموضوع ولم أحسمه بعد، نظرت إلي وهي في طريقها إلى المطبخ، وقالت بحنان فائق: لقد أحضرت لك الكعكة ألتي تحبينها، الحقي بي إلىالمطبخ.

– نعم يا أمي، سألحق بك، ولكن بعد أن أحزم حقيبتي.

قالت بدهشة: ستسافرين اليوم؟

– نعم.

– أنت مصممة على السفر! ولكن لم تخبري والدك؟

– والدي أخبريه أنت بطريقتك، لكن أنا ينبغي أن أغادر الآن.

كنت أفكر بأيمن، وأؤمن أنني لو بقيت يومًا آخر في بيروت، فلست أدري أي مصير ينتظرني، كانت أمنيتي أيضًا أن أتكلم مع منى وأولادها، ولكن حتى الهاتف لا أسمح لنفسي باستعماله.

كارمن هي الموجودة الآن، أما الرجل فليس له مكان في حياتها، بل ستكتفي بمخزون ذكريات مضت وستعيش الحياة وحسب. كارمن طبيبة ناجحة، ألفت كتابها الأول عن تجربة عاشتها، والكتاب طبعته وأحدث ضجة في طبعته الأولى التي نفذت بسرعة، وجاءت عناوين الصحف تقول:"طبيبة عربية تسرد تجربتها في الأسفار وفي العلاقات المفتوحة"صحيح أن العناوين المختارة في التقارير التي تناولت الكتاب لم تكن تمثلني، فصورة الغلاف عليها فتاة منقبة، لا تظهر إلا عينيها، هكذا أرادوا رؤيتي، لكن حتى هذا لم أعترض عليه، فقد استفدت منه في الترويج للكتاب وتحقيق انتشاره.

للمرة الأولى كنت سعيدة وحدي، بنجاحي في الكتابة، بالحديث عن تجربتي، حكايتي التي استمرت عشرين عامًا، وانتهت بالفراق..لا، تلك لم تعد حكايتي، إنها حكاية يارا.

ويارا أصبحت مجرد اسم ولن تعود للحياة مجددًا، إنها في ذاكرة من عرفها فقط. أما جهاد رزق فقد عرف كارمن وأحب كارمن، ظل إلى جانبي، كنا صديقين ناضجين نلتقي لشرب لتناول العشاء مع كأس نبيذ وردي، تاركين أي احتمالات قادمة للغد، من دون أن نتدخل بها.

أغنية هادئة ولحن أخير

انتهت كل الحكايات الأليفة إلى القلب، تلك التي عشناها، وظل أصحابها معنا زمنًا طويلًا.

هل حقا بقينا نتردد أعوامًا طويلة على الاستراحة؟

لقد هرمنا جميعًا، ماتت ريا صديقة عمري، رحلت قبل أن تتمكن مي بدران من إنقاذها، ماتت بخفة كما عاشت، مثل أغنية هادئة يظل لحنها يتردد في الذاكرة.

الصداقة أيضًا تنتهي مثل كل الأشياء، لها وقت افتراضي، عرفت هذا حين شاهدت يارا على قناة دبي، تتحدث عن كتابها، عن قصة حبها، وكانوا ينادونها كارمن، لكن هي يارا، أعرفها جيدًا، صحيح أنها كبرت، وأنها لم تواري الشعيرات القليلة البيضاء التي تظهر في مقدمة رأسها، لكنها ماتزال جميلة، بل إن سحرها ازداد مع لمعة الثقة بالنفس والحرية.

هل ستذكرني يارا لو شاهدتني الآن؟ هل يعرف أيمن أن يارا صارت تظهر على شاشات التليفزيون، وتحكي عن قصتهما العتيقة؟

لكن هل من المهم أن يعرف بعد مرور هذه السنوات؟ ثم لماذا أتفاجأ بظهور يارا على الشاشة للترويج لكتابها، بعد أن صارت ريم تظهر في

برنامج أسبوعي مما يطلق عليه (توك شو)؟ريم أيضًا لم تعد المرأة الخجولة التي جاءت أول مرة إلى الاستراحة كي تلتقي مع فؤاد عزت.

هل تغيرت أنا أيضًا؟ كما تغيرنا جميعًا، لا، لا..، مي لم تتغير، ظلت تعمل في المستشفى، وتزورني بين حين وآخر، ريا أيضًا لم تتغير لكن الموت أخذها منا.

لكن أنا؟ لماذا عليّ السفر؟لماذا عليّ مغادرة استراحة الزمن الجميل؟هل هذا مهم حقًا؟ هل من المهم معرفة الحكاية حين نتقدم في السن؟ حين نحكي عن الماضي البعيد بصيغة الأمس؟ ما هي حكايتي أنا؟ لقد نسيت حكايتي، لم يعد من المهم تذكرها أبدًا، فقط علي الانتهاء مما أتيت لأجله، أن أُلملم كل هذا الماضي المتناثر هنا وهناك.